محمد زنيبر

صفحات من الوطنية المغربية

من الثورة الريفية الى الحركة الوطنية

1990

محمد زنيبر

صفحات من الوطنية المغربية

من الثورة الريفية الى الحركة الوطنية

1990

دور الخطابي
في الكفاح من أجل التحرر الوطني
في بلدان المغرب

سيقتصر عملي في هذا البحث على نظرة إجمالية عن نشاط محمد بن عبد الكريم بمصر منذ 1947 إلى 1963، أي منذ إلتجائه الى تلك البلاد حتى وفاته. لكن، حينما نحدد موضوعنا في هذا الإطار الزماني، ما نلبث أن نصطدم مع مشاكل ترتبط بالمنهاج أو بجوهر الموضوع، وتتطلب منا أن نلقي كل الأضواء عليها، بادىء ذي بدء.

ولا بد من أن نعتبر، أولا، أن تلك الفترة قريبة منا جدا، مما يجعل من الصعب الإطلاع على كل أسرارها. صحيح أن الصحف العربية والأجنبية تتبعت باهتمام كبير نشاط محمد بن عبد الكريم بالقاهرة، ولكن، هل نقنع بها كمصدر لجمع معلوماتنا؟

الحقيقة أن ما تتضمنه مهم ولكنه غير كاف، فلا ننسى أن الزعيم الريفي كان يتسلح بالتكتم والتحفظ والإحتراز، مما يجعله في كثير من الأحيان لا يظهر فكرته كاملة للصحافيين. كيف كانت اتصالاته مع أبناء المغرب الكبير؟ ومع أبناء المغرب الأقصى؟ ومع أبناء الريف، بالخصوص، الذين كانوا يأتون لزيارته أو يرتبطون به؟ ماذا كان يقول لخواصه، وللرجال الذين كان يضع فيهم ثقته؟

ومن الصعب علينا أن نحدد في هذا الصدد مصادرنا بصورة مسبقة. فمن الممكن أن نلتقط عن طريق الرواية الشفوية عدة شهادات، وحكايات يصعب، في

أكثر الأحيان، التأكد من صحتها، سيما وأن الموضوع يحرك الأهواء من هذه الطائفة الى تلك. وما زال البحث هنا في حاجة ماسة الى القيام بتحقيقات دقيقة مع كل الأشخاص الذين عرفوا الزعيم الريفي. وانه لبحث صعب، مليء بالمشاكل، ولكنه ضروري لكي نلم بعمق الموضوع.

وفي نفس الوقت، لا نفقد الأمل بأن تنشر في يوم من الأيام مذكرات الزعيم الريفي التي تواترت عدة شهادات على تأكيد وجودها.

ثانيا، إن اختيار سنة 1947 كمنطلق للبحث ـ كما اقترح علي من طرف المنظمين للندوة ـ لا يخلو من بعض التعسف. فهذا التاريخ يقع وسط مسلسل تاريخي لا يمكن فصله إلى قسمين. صحيح أن سنة 1947 تمثل منعطفا حاسما في الحياة الشخصية للزعيم الريفي، ولكنها بالنسبة لتاريخ المغرب في شموليته تقع وسط مرحلة من الكفاح الوطني، انطلقت مع حرب 1939 ـ 1945. فهو، بالإجمال، حدث كبير، ولكنه ينزل وسط صفحة تاريخية وقع الشروع فيها منذ زمان.

وإذا لم ندخل في اعتبارنا ذلك السياق التاريخي، فلن نفهم بسهولة مساهمة ابن عبد الكريم في الحركة الوطنية، على صعيد المغرب العربي، واننا في الحقيقة هنا تجاه مشكلة كلاسيكية، ألا وهي دور الفرد في التاريخ. فإذا تحدثنا عن مساهمة ابن عبد الكريم، فمن الواجب أن لا ننسى نشاط الرجال الذين كانوا جنبه بالقاهرة، وكذلك بالأخص نشاط المغاربة في المغرب ذاته.

ثالثا، إن الإنطلاق من تاريخ 1947 تطرح مشكلة أخرى لا تقل أهمية عن السابقة من حيث الجوهر. فالمؤرخ ملزم بأن يميز بين حدثين جوهريين:

1 ـ العمل الذي قام به ابن عبد الكريم مباشرة ابتداء من ذلك التاريخ.

2 ـ تأثير ابن عبد الكريم على حركة التحرير المغربي، بوجه عام.

فهل يصح أن نضع هذين الحدثين في نفس التاريخ؟ أو، بعبارة أخرى، هل كان من عواقب النفي الذي تعرض له ابن عبد الكريم أن حدث نسيانه بالمرة وأن فقد كل تأثير وصدى بالمغرب؟

لا بد من طرح المشكل بهاته البساطة لأن منطق التحليل التاريخي يتطلب ذلك، ومهما يكن جوابي على السؤال المطروح، فإني أرى نفسي ملزما بأن أتحدث،

أيضا، عن هذا التأثير، ولو كان ذلك يضطرني أن أصعد إلى ما قبل 1947، لأنه، كما تقدم، هو الذي يوضح لنا عمل ابن عبد الكريم ابتداء من ذلك التاريخ.

ولست أجهل بأن كلمة «تأثير» من الكلمات التي يصعب تحديدها وحصر مدلولاتها، وهذا بالأخص اذا كان الأمر يتعلق بمقارنات تاريخية ذات شعب وألوان.

ومع ذلك، فلا بد من التسليم بأنها تقترن بواقع نلمسه مباشرة. والواقع الذي يهمنا هنا يكتسي، قبل كل شيء، صبغة نفسية. وقد أصبح لهذا الجانب النفسي أهميته في التاريخ منذ أن اتجه علماء الإجتماع في أبحاثهم إلى الكشف عن النفس الجماعية وتأثيراتها وتأثراتها، من جهة، ومنذ أن ظهر علم التحليل النفسي على يد فرويد وتلامذته متجها من دراسة الوجدان الفردي إلى دراسة الوجدان الجماعي، من جهة أخرى.

ونحن، على أي حال، في نظرتنا العابرة نلمس معطيات تذكرنا بمعطيات التحليل النفسي. فهنالك جانب من الماضي يتميز بقوته واتساع صداه في الوعي الجماعي، ويتمثل في الثورة الريفية. وهناك حاضر يحاول أن يكبت ذلك الماضي ويمحوه من الذاكرة الجماعية. وعملية الكبت تساهم فيها عدة قوات ضاغطة نذكر منها اثنتين:

- قوة الجهاز الإستعماري الذي يسخر في آن واحد وسائل القمع، ووسائل الإعلام، ووسائل الرقابة ومصادرة الحريات ليرسخ عملية النسيان.
- المشاغل الراهنة في ساحة الحركة التي بحكم نوع قيادتها وانسياقها نحو تغيير المنهاج وأساليب النضال وجدت نفسها، بدوافع تكتيكية أكثر منها إيديولوجية، تغطي على مرحلة الثورة الريفية وتحاول أن تسدل عليها رداء النسيان، على طريقتها الخاصة.

ولكن، كما بين التحليل النفسي، إن محاولة كبت الماضي تعيد الماضي إلى الحياة أحب من أحب وكره من كره، وهكذا فإن الغياب الجسدي لمحمد ابن عبد الكريم لم يقض بتاتا على استمرار تأثيره في المجتمعات المغربية. فالعكس هو الذي حصل في أوساط الشعوب المغربية، سيما اذا اعتبرنا أن الدوافع التي حركت الزعيم الريفي ما زالت قائمة وأن الأهداف التي كان يسعى إليها ما زالت كلها بعيدة عن متناول الرجال والمنظمات التي حلت محله في قيادة النضال الوطني.

ولكي نحلل هذا التأثير يجب أن نرجع الى سنة 1926 التي انتهت فيها حرب الريف واتجه ابن عبد الكريم إلى منفاه، وهنا نصطدم بما يظهره عدد من المؤرخين والباحثين، عن قصد أو غير قصد، من قصور في الفهم، ومن ثم جاءت أهمية المشكل الذي نتحدث عنه الآن. وأكتفي بإيراد مثال واحد على ما أقول.

فهذا «بيير روندو» يستند إلى «روبرت مونتاني» في مقال نشر بمجلة «دراسات» (مارس 1963)، ويصدر هذا الحكم على ابن عبد الكريم: «إن ملحمته التمردية فيما بين سنتي 1921-1926 كانت من آخر الإنتفاضات الناجمة عن نظام العصبية العتيق، أكثر مما كانت وثبة تحسب ضمن الحركات الوطنية فيما وراء البحار». وهكذا نجد هاته النظرية تحاول أن تصب الثورة الريفية بحذافيرها في قالب قبلي، وتجعل منها مجرد تعبير عن نزعة عرقية تعود بنا إلى ماض سحيق. وإذا كان الأمر كذلك، فالإستنتاج الذي نخرج به هو أن الحركة الريفية يستحيل عليها أن تكون ذات تأثير في المستقبل. واستنتاج من هذا النوع بعيد عما يلمسه عن كثب العارفون بتاريخ المغرب.

ففي مقابل هذا الرأي الذي يحصر الثورة الريفية في أبعاد صغيرة، نجد رأيا آخر صادرا عن عالم اجتماعي ومؤرخ كبير مختص في شؤون المغرب، «جاك بيرك» الذي يقول في كتابه «المغرب بين الحربين» وهو يتحدث عن ابن عبد الكريم، ما نصه:

«إن قضية ابن عبد الكريم تعيد في سنة 1925، ولكن، بإيقاع أقوى، مقاومات اصطدم بها توغلنا داخل المغرب الرافض للخضوع. إلا أنها، الى جانب مظاهر الشرف القبلي والصمود في كراهية الأجنبي والجهاد، تضيف مظاهر أخرى منها ما هو سابق لأوانه بصفة مثيرة للأنظار. فلم يكن الأمر في هذه الحال يعني «مرابطا» محليا وقائدا للجهاد يعد بالجنة كل من حارب الكفار، بل كان يعني رئيسا سياسيا ارتفع بطموحه الى الفكرة الوطنية والى مستوى التحركات الدولية، أيضا. وإن المساندة التي قدم له «الكومينترن» والحزب الشيوعي الفرنسي، والعلاقات التي يربط بالعالم الإسلامي، حيث كانت تغلي في نفس الوقت ثورة دمشق الثانية، كل ذلك جعل منه شخصا لم تزده الهزيمة النهائية التي تكبدها أمام قوات ضخمة لا نسبة بينها وبين قوته إلا بروزا وظهورا».

وليس ما يقوله بيرك هنا مجرد رؤية لعالم اجتماعي قابلة للمناقشة، ولكنها تسجيل لواقع عاشه المعاصرون لحرب الريف أنفسهم. ولننصت إلى ما قاله النائب الإشتراكي «بيير رونوديل» في تدخله بالبرلمان الفرنسي في 27 مايو 1925 في إحدى الجلسات المخصصة لحرب الريف، وهو يشير الى الصدى الذي كان لثورة الريف في العالم الإسلامي.

«ولكن، أيها السادة، مهما عزوت الى الخارج من تأثير على ابن عبد الكريم، فلا بد من أن تسلموا، مع ذلك، بأنه ما كان ليصادف هذا العطف في الأوساط القريبة منه، في العالم الإسلامي، بين المسلمين، لو لم يكن يمثل بشخصه تجسيدا لتفكير تلك الأوساط. فلو لم يكن يتجاوب مع ذلك التفكير، بما أظهره من اتساع في النظر وعمق في التأمل، لما أصبح ينظر إليه كرجل يتوفر على شخصية أقوى من تلك التي وجدناها عند عدد من الرؤساء والذين اشتريناهم أحيانا وبكل سهولة في الماضي».

ومثل هاته الشهادات، الصادرة عن ملاحظين لهم صلاحية كافية، تبرز ما كان للثورة الريفية من ميزة في وقتها وما كانت تحمله من وعود بالنسبة للمستقبل. فالفرق بين موحى وحمو أو سيدي رحو، مثلا، وبين ابن عبد الكريم هو أن الأولين كانا يمثلان شجاعة العصور الماضية وتقاليدها وعقليتها ووسائلها في مجابهة مشاكل جديدة في عصر جديد، بينما الثاني كان يتصور مهمته في نطاق كفاح عصري من أجل مغرب جديد. وليس هذا الفرق الجوهري بالأمر الذي يسوغ للمؤرخ أن لا يكون واعيا بأهميته.

كيف تواصل تأثير ابن عبد الكريم بعد انتهاء الثورة الريفية وانسحابه من الميدان؟ كل الظواهر السطحية توحي للملاحظ العجلان أنه وقع نوع من التقطع في خط الكفاح الوطني المغربي مع الصفحة الجديدة من الحركة الوطنية المبنية على النضال السياسي والمنطلقة من كبريات المدن. ولكن عند تدبر الوقائع بإمعان، ندرك في الحين أن المضمون الإيديولوجي للحركة الوطنية والمطالب التي برزت بها في الثلاثينات والأربعينات كانت مسطرة في برنامج محمد ابن عبد الكريم. ويكفي أن نورد هنا، على سبيل المثال، ما كان يقوله لمبعوث الماريشال ليوطي، «ليون جابريالي» في سنة 1925. وقد احتفظ لنا هذا الأخير، الذي لم يكن له أي تعاطف مع النضال

الوطني المغربي في كتابه «عبد الكريم» بتلخيص للمحادثات التي جرت بينه وبين الزعيم الريفي. ونكتفي هنا بإيراد فقرة تؤيد الرأي الذي ذهبنا إليه، إذ يقول ابن عبد الكريم مخاطبا «جابريالي»:

«حقا، إني أعلم بأن معاهدتي 1904 و1912 تقدمان كحجة، ولكن هذا خطأ، لأن المعاهدتين المذكورتين تجاوزهما الزمان. فلم يظهر أي شعب من شعوب المغرب آنذاك رغبته في الإستقلال. ولكن أهل الريف برهنوا اليوم عن إرادتهم القوية في الإستقلال، ويريدون أن يعيشوا أحرارا. فهل من الغريب أن نرى شعبا يطالب باستقلاله؟ وهل من غير الحق أن يطمح شعب الى حريته؟ وأن تكون له حريته في عقد معاهدات مع دول أخرى وفي احترام الإتفاقيات؟ ولكن الحزب الإستعماري يريد أن يستعبدنا دون أن يعتبر حق الشعب في تقرير مصيره. وإذا كانت الدعوى قائمة في عصرنا بأننا وصلنا الى منتهى الحضارة، فمن الأجدر بهاته الحضارة أن تعمل على تحرير الشعوب بدل استعبادهم. ولكي يبرر الحزب الإستعماري أطماعه في الإستيلاء على أي قطر، كان يقول عن بلادنا «إنه شعب من المتوحشين يتقاتلون مع بعضهم، ويقتلون النصارى، ويحرمون التجارة العالمية من ثرواتهم المعدنية أو الفلاحية». الخ . . . وهذا غير صحيح بالنسبة للريف اليوم، الذي هو بلد منظم يسوده الأمن ويستطيع الأوربيون أن يتجولوا فيه بكامل الحرية ويصادفوا استقبالا وديا. ولكي يصل الى مستوى الحضارة الموجود في أقطار أخرى، فإن الريف عازم على أن يطلب مساعدة الخارج في كل ما يحتاج إليه، وسيبادل منتجاته بالمنتجات الأوربية التي هو في حاجة إليها، وسيعيش مثل غيره من شعوب الإنسانية. وكلما تحدثتم عن معاهدتي 1904 و 1912، فإن أملي يضعف في إمكان أي اتفاق. فإذا أردتم الحصول على سلم دائم، فلا بد من وضع الأسس لاتفاق نهائي. فالأساس الوحيد هو الإعتراف باستقلال الريف وتعيين الحدود بين المنطقتين. وليس لي شخصيا أي طموح. فلست أسعى لا للسلطنة، ولا للحكم المطلق. واذا كان في وجودي أية مضايقة، فأنا مستعد للإنسحاب حتى أترك المكان لغيري.».

ولعلني أكثرت من الإقتباسات، ولكن عذري في ذلك هو أن الحجج التي ارتكز عليها تتكون، قبل كل شيء، من نصوص ما زالت لم تقع تحت مجهر الفحص بالكفاية. والنص الذي أوردناه الآن يبين، بكامل الوضوح، أن برنامج الحركة

الوطنية المغربية برمته في المرحلة التالية، يوجد مضمنا فيه بالتصريح والتلميح. فهنالك المطالبة بالاستقلال، وهناك التنديد بمعاهدة الحماية، والمطالبة بإلغاء النظام الإستعماري، والإعلان عن الرغبة في خلق دولة عصرية، ونهج سياسة للتنمية، والإقتداء بالدول المتقدمة الخ . . .

هذا جانب من تأثير الثورة الريفية على ما أعقبها من نضالات في الحقل الوطني. وقد اكتفيت بالإشارة اليه دون محاولة للتعمق. ولعله سيأتي يوم نتوفر فيه على كل النصوص وكل وسائل البحث، وستتيح لنا المقارنة.بين العهدين ما للسابق منها من مفعول على اللاحق بصورة مفصلة ومدققة.

وكذلك نلمس تأثير ابن عبد الكريم في المقاومة المسلحة التي قامت بها شعوب المغرب، خلال السنوات الأخيرة من معركتها التحريرية. ومن المعلوم أن ابن عبد الكريم كان هو المبتكر لخطة الحرب التحريرية المبنية على مضايقة العدو بالهجمات المباغتة بواسطة جماعات صغيرة من الجنود واستغلال كل الإمكانات والتسهيلات التي تقدمها الأرض والتضاريس الجغرافية. وهذا ما خوله أن يجابه على رأس جيشه الصغير بكل فعالية جيشين من أعتى الجيوش العالمية: الجيش الفرنسي والجيش الإسباني. ولعله من المفيد في هذا الصدد أن نلتجىء مرة أخرى إلى شهادة النائب الفرنسي بيير رونوديل لندرك الأثر البالغ الذي تركه ابن عبد الكريم في نفوس معاصريه. فهي شهادة تترجم عن الأحداث في طراوتها وحرارتها:

«كانت لدينا مراكز وحصون شمال ورغة. وكان عدد كبير منها، إن لم نقل كلها، مطوقا من لدن القبائل التي تسللت من خلال الخطوط التي كانت تتخطاها، وأصبح جنودنا الذين كانوا يحتلونها لا يستطيعون الإنسحاب منها، لأن تجمع الريفيين أمكنه أن يتم وراء ظهورهم. وبلغ التكتيك الريفي أقصى حد من المهارة. وسنراها تتكرر أثناء كل العمليات. وتتلخص في اجتذاب فيالقنا وانتظارها في أرض مهيأة، وحينما يكون كمينهم قد حقق الخطوة الأولى من النجاح يعمدون الى الفرار ليتجنبوا ما يسميه العسكريون العقاب». ويؤكد كارلتون كون من جهته: «كان في مستطاع عبد الكريم أن يحارب الفرنسيين في مدة لا نهاية لها لو لا أن خصومه هاجموه بالطائرات والمصفحات».

وكما اتضح من خلال العروض السابقة، فإن ابن عبد الكريم كان السباق لوضع الخطة التي سيطبقها من بعد «ماو تسي تونغ» و «هوشي مينه» و «تشي جيفارا». وفي هذا الصدد لا نجد خيرا من شهادة رئيس الحكومة الفرنسية الذي قال في إحدى تصريحاته: إن ليوطي «وجد نفسه وجها لوجه مع جيش من المشاة يثير الإعجاب، في مستوى أي جيش في العالم من حيث الشجاعة، والقناعة، وصدق الرماية. وقد لوحظت السهولة التي يتحرك بها ذلك الجيش من مكان لآخر. وهذا صحيح، إنه بالفعل يتوفر على سهولة التحرك، ولكن له أيضا خفة في التحرك من نوع خاص. فتارة تجري الأحداث في هاته القبيلة، وطورا في الطرف الآخر في قبيلة أخرى، وذلك في نفس الوقت الذي يقع فيه تجنيد الرجال. إنها فيالق خفيفة الحركة جدا، انها في الواقع مجندة في مكانها ومنه تمارس الحرب». شهادة مهمة تبين أن الحرب بالنسبة للريفيين لم تكن حرب جيش محترف، وإنما هي حرب كل السكان أينما وجدوا، حرب الشعب بكل معنى الكلمة.

فلا عجب اذا وجدنا «هوشي مينه» يصف ابن عبد الكريم بكونه «البطل الوطني المؤسس للحرب الشعبية». ونحن متفقون مع الأستاذ المستشرق فانسان مونتاي حينما أشار في عرضه الى كون الزعيم الريفي هو المنظر والمطبق الأول للحرب الثورية لأنه عرف كيف يستعمل لصالحه معطيات الأرض والبيئة القبلية المشاركة أي ما عبر عنه «ماو تسي تونغ» بصورة «السمك في الماء».

وهذا هو الدرس الذي سيحفظه الوطنيون المجاهدون عند إقدامهم على المراحل الأخيرة من النضال في سبيل التحرير الوطني بالمغرب العربي. وسيطبق، على التوالي، في تونس والجزائر والمغرب. ولعل أقوى صورة لتطبيقها جرت بالجزائر، نظرا لتعنت الإستعمار في ذلك القطر الشقيق، ولطول مدة الحرب التحريرية وضخامة التضحيات التي ترتبت عنها، لكن المهم هو أن كل الأقطار الثلاثة اتجهت الى خطة الحرب الشعبية التي انتهجها ابن عبد الكريم.

هناك جانب آخر في ثورة ابن عبد الكريم كان له أثره البين في الحركة الوطنية المغربية، وأعني به التنظيم الداخلي للدولة الريفية الفتية. وهو موضوع سأتحرى فيه الإختصار، لأنه عولج في عروض أخرى. وقد أخذنا عنه فكرة، منذ لحظات، حينما

أوردنا تصريحا لابن عبد الكريم خاصا بهذا الموضوع. ويجب أن نلاحظ هنا أننا بازاء نقطة تستحق اهتماما أكبر. فالمؤلفون الأوروبيون لم يغفلوها بالمرة، ولكن كلامهم، في الغالب، لم يخرج عن النظرة العامة والإنطباع السريع لينكب على التحليل المفصل والمدقق. ولعل العمر القصير لدولة الريف صرفهم عن الإهتمام بنظامها ومقوماتها. ومهما يكن، فإننا نجد اهتماما أكبر عند المؤلفين العرب الذين أمكنهم أن يجمعوا معلومات قيمة عن الموضوع ونخص بالذكر منهم في هذا الصدد علال الفاسي وأمين سعيد. ويستخلص من تلك المعلومات المستقاة من عدة مظان من بينها مذكرات ابن عبد الكريم غير المنشورة أن الدولة الريفية كانت ترتكز على نظام ديمقراطي، معبر عنه في ميثاق وطني.

وفي نظرة عجلى يمكن أن نصور ذلك النظام بكونه يرتكز، من جهة، على مجلس وطني تمثل فيه جميع قبائل الريف المحاربة، ومن جهة أخرى، على حكومة يسيرها رئيس الثورة الريفية مباشرة، ويساعده في مهامه المختلفة عدة وزراء أو نظار، مثل وزراء الخارجية والمالية والتجارة. وكان لابن عبد الكريم اهتمام خاص بالداخلية والحربية. كما تمكن القائد الريفي من كسر البنيات القبلية القديمة وتعويضها ببنيات جديدة إدارية، على الصعيد المركزي والجهوي، على السواء.

ومع التسليم بأن معلوماتنا ما زالت ناقصة في هذا الموضوع، وأن المجال مفتوح لروايات وتأويلات مختلفة، لا نرى بدا من الألحاح على أن هاته نقطة مهمة يجب أن تسلط عليها كل الأضواء وتوجه لها جهود الباحثين. ويمكننا أن نشعر بنوع من الإرتياح اذا علمنا بأن هنالك عدة مشاريع من البحوث الخاصة بالثورة الريفية في طور الإنجاز. ومهما يكن، فهنالك حقيقة لا سبيل لتجاهلها وهي أن ابن عبد الكريم كان له سبق بالنسبة للوطنيين، أصحاب تصميم الاصلاحات المغربية الصادر في 1934، في فكرة أساسية وهي تغيير بنيات الحكم، أي المخزن التقليدي، في اتجاه تحقيق الديمقراطية.

أصل الآن الى الجانب النفساني المحض في تأثير ابن عبد الكريم. لقد كان لحرب الريف صداها العميق في ضمير أبناء المغرب العربي. فبسبب طول مدتها، وضخامة حجمها ودويها الكبير في الأوساط الدولية اكتسبت آنذاك في العشرينات، ولو بصورة مصغرة، الطابع الذي اكتسبته حرب الفيتنام بعد ذلك بعشرين سنة.

ووضعت موضع النقاش والاستنكار كل النظام الإستعماري العالمي التي تآمرت الدول الكبرى على بنائه وترسيخه منذ أزيد من قرن. فكانت بمثابة سابقة تاريخية خطيرة تزعج الإستعماريين في حفلاتهم وولائمهم وأحلامهم، فالأنجليز يرقبون الأحداث عن كثب ويدهم على قلبهم كما كان شأن الإسبان والفرنسيين. والرأسمالية ترى مصالحها بالمغرب في مهب الرياح. وتقوم قائمة الرجال السياسيين بفرنسا حيث يعقد مجلس النواب عدة جلسات لمناقشة الحكومة في سياستها. ويتأثر الزعيم السياسي الأنجليزي لويد جورج لتطور الأحداث فيكتب مقالا ينصح فيه إسبانيا بإبرام الصلح مع الريف. كما يتدخل نواب فرنسيون، في نفس الإتجاه فيقترحون على حكومتهم في البرلمان الفرنسي أن تدخل في مفاوضات مع ابن عبد الكريم من أجل الصلح، وهكذا، شاهد أبناء المغرب العربي، لأول مرة، بالبرهان الساطع على أن اليأس من كسر أغلال الإستعمار الأوروبي ليس من حتميات التاريخ، بل يمكن محاربته بنجاعة، اذا عرف المظلومون كيف ينظمون أنفسهم.

ونجد صدى لكل ذلك فيما كتبه «والتر هاريس» مراسل جريدة «التايمس الأنجليزية» حين قال في كتابه «فرنسا وإسبانيا والريف» ما يلي: «لقد كان الأمر يعني حربا لم يكن لها مثيل في التاريخ الإستعماري» كما نجد شهادة أخرى معاصرة من العالم العربي بقلم الكاتب الوطني الكبير «شكيب أرسلان» الذي خصص عدة صفحات في تعاليقه على كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، وذلك قبل نهاية الثورة الريفية ذاتها، للحديث عن ابن عبد الكريم بتقدير وإعجاب. ولا حاجة بنا إلى الإلحاح على السمعة الكبيرة التي كان يتمتع بها شكيب أرسلان في أوساط الوطنيين المغاربة، ولا على الإقبال الكبير الذي كانت تصادفه كتبه ومقالاته، ويكفي أن نحيل القارىء هنا على ما ذكره «شارل أندري جوليان» في كتابه «أفريقيا الشمالية تسير».

ماذا بقي من الملحمة الريفية ومن الأصداء الكبيرة التي أثارتها في نفوس المغاربة؟

بقيت قصة جميلة تتردد كالمثل، وصدى عميق ظل يغذي أحاديث الأوساط المختلفة في المجتمع المغربي، من بورجوازية المدن الى المثقفين، الى سكان البوادي، حيث أصبحت حرب الريف تذكر كنموذج للجهاد الوطني الحق. وهكذا صارت الحركة الوطنية التي ستخلفها في مرحلة تالية استمرارا لها، ولو اكتست صورة أقل

حجما وأضعف شأنا. إنها، وهذا هو المهم، احتفظت بنفس المبادىء والأهداف والذي تغير هو منهاج العمل. لقد كان في مستطاع ابن عبد الكريم أن يقرن في نضاله بين وسائل الحرب ووسائل السياسة. أما الوطنيون الذين جاءوا بعده في المغرب العربي، فقد اقتصروا فيما بين سنتي 1926 و1944 على نشاط سياسي محض كان يهدف، من خلال توعية الجماهير الشعبية، الى ممارسة ضغوط على السلطات الإستعمارية، من أجل تحقيق عدد من المطالب المرحلية. ومن ثم اتسمت حركتهم، ولو ظاهريا، بسمات التردد والإنتظارية والإصلاحية. لكن ما أن انتهت الحرب العالمية الثانية، حتى نشأ الشعور لدى الكثير من الوطنيين بأن أساليب ابن عبد الكريم هي الوسيلة الوحيدة الكفيلة منطقيا بانتزاع الوطن من مخالب الإستعمار. وبدل أن نرى انفصاما بين الحركة الوطنية السياسية والثورة الريفية، من الأفضل والأوفق للحقيقة التاريخية أن ننظر الى أحداث الفترة من خلال مسلسل جدلي لأن كلتا المرحلتين تشخصان ذاتا واحدة هي الشعب المغربي في موقفين مختلفين بسبب اختلاف الظروف.

صحيح أننا اذا اقتصرنا على النظر الى موقف القادة والزعماء وحدهم، واتخذنا مما كتبوه أو صرحوا به في هذا الظرف أو ذاك حجة تاريخية لا ترد ولا تناقش، فسيكون من السهل علينا أن نستنتج بعد ذلك، أن الحركة الوطنية المغربية بعد 1926 تجاهلت محمد بن عبد الكريم ولم تستفد شيئا من مثاله ولا من تجربته. ولكن استنتاجا من هذا النوع يدل على أننا لم نتجاوز ظواهر الأحداث وبقينا تائهين في قشر التاريخ دون أن ننفذ الى جوهره.

لم يكن من الممكن ولا من المعقول بالنسبة للوطنيين المغاربة بعد 1926 أن يتجاهلوا ثورة ابن عبد الكريم لسبب بسيط وهي أنها كانت تمثل مجهودا تاما في سبيل التحرير، مجهودا ليس من السهل تكراره ولذلك فهو ينتزع إعجابهم. وما زال آباؤنا وأجدادنا الذين عايشوا تلك الأحداث يشهدون بالوقع الذي كان للثورة الريفية سواء في نفوس الشباب بالمدن، أو الأوساط الشعبية، أو لدى طائفة من العلماء ورجال السلفية.

طبعا، لم يكن من الممكن لحركة وطنية ظهرت فورا بعد ثورة الريف أن تتبنى خططها وشعاراتها أمام خصم جبار عنيد انتصر عليها بقوة الحديد والنار. هنالك،

إذن، أسباب تكتيكية كان لا بد للشباب الذين أقدموا على تأسيس الخلايا السياسية الأولى في الحركة الوطنية ببعض المدن المغربية من أن يضعوها في الإعتبار الأول. وكان لا بد في هذه المعركة الطويلة بين المغاربة والإستعمار من استعمال خدعة الحرب. فهل يصح للمؤرخ، اليوم، بعد أن مرت عقود على تلك المعارك أن ينخدع بدوره لتلك الخدعة!؟.

وبعبارة أوضح، لم يكن من الممكن للوطنيين أن يقدموا أنفسهم للسلطات الإستعمارية، المصممة على التنكيل بكل من يقف في طريقها، كرجال يواصلون عمل ابن عبد الكريم. لقد أحرزت فرنسا على هذا الأخير انتصارا كلفها غاليا، ولم يكن لديها أدنى استعداد للتغاضي عن أي عمل يذكر من قريب أو من بعيد بثورة الريف. ومازال آباؤنا يذكرون كيف أن السلطات الفرنسية حاولت بوسائل الضغط والمضايقة أن تمنع المغاربة من تسمية أولادهم باسم عبد الكريم.

فهل يحق لنا بعد هذا أن نتحدث عن قطيعة بين الوطنيين وابن عبد الكريم، لأن زعيما وطنيا تظاهر لأسباب تكتيكية بأنه تجاهل ابن عبد الكريم، أو لأن ظروف النضال الوطني فرضت تغيير أسلوب العمل، والإتجاه إلى خطة أقل عنفا وأطول نفسا؟

لقد بينا ما في مثل هذا الرأي من تعسف، ولكن مهما كان رأينا في هذه القضية بالذات، فالمهم الذي لا ينبغي أن يغيب عن أنظارنا هو أننا إذا رجعنا إلى جماهير الوطنيين لنحلل ما كان يروج في ضميرهم الجماعي، فسنجد أن هاته القطيعة لم يكن لها أي وجود، ولم يظهر أثرها في أي تحرك من التحركات الوطنية الأساسية. بل إن الثورة الريفية ظلت ذكرى بالنسبة للماضي ونموذجا للعمل بالنسبة للمستقبل. وهذا ما أبرزه التطور التاريخي فيما بعد.

إلتقت، إذن، عدة عوامل لتمنح الثورة الريفية وشخصية ابن عبد الكريم أبعادا تتخطى، على نطاق واسع، مدة الحرب الريفية ذاتها، بحيث إن الزعيم الريفي، وهو في منفاه البعيد، ظل يشغل الأفكار، ويؤثر عليها. وفي هذا الصدد يقول الكاتب جان لاكوتور، غداة وفاته: «إن أسطورته الممتزجة بالمقاومة الجبلية الطويلة التي قام بها محارب أجدير، ظلت إلى قيام ثورة 1955 أحد الموضوعات الكبرى للوطنية المغربية».

من هنا وابتداء من 1947، يمكن القول إن عمله أصبح، بصورة أو بأخرى، مزدوجا: فكان في البداية العمل اللامباشر، المتشخص في صدى ملحمته لدى الرأي العام في المغرب الكبير. لكن، أضيف إليه، في نفس الوقت، العمل المباشر، الذي قام به في القاهرة. ولست أعتقد أنه من العدل والمنطق، أن نفصل هذا عن ذاك. ولذلك حرصت على أن أتحدث عنه طويلا.

حينما نزل ابن عبد الكريم إلى أرض مصر في سنة 1947 بعد سنوات من العزلة الطويلة، وجد نفسه، على الفور في سياق سياسي كله جديد بالنسبة إليه. فقد كانت نهاية الحرب العالمية الثانية 1939-1945 تشكل منعطفا كبيرا في تطور الوطنية المغربية التي يجب وضعها في إطار حركة تحرير الشعوب المستعبدة في العالم، تلك الحركة التي اتسع نطاقها وقوى مفعولها في كل جهات المعمور.

وإنها لوضعية فتحت آفاقا واسعة أمام الأحزاب الوطنية المغربية. لكن هؤلاء ظهروا، في الوهلة الأولى، وكأن الأحداث تجاوزتهم. فمطالبتهم بالإستقلال، التي عبروا عنها والتي كانت تتجاوب مع عاطفة الجماهير، كانت تفرض تغييرا جذريا وسريعا في العادات والخطط. وهو أمر لم يكن سهلا. فالقادة الذين كانوا، في معظمهم من أبناء المدن ومن مثقفي البورجوازية الناشئة، لم يكونوا يفكرون في تجاوز حدود العمل السلمي والمساير للمشروعية القائمة. ومافتىء هذا السلوك يبرهن يوما بعد آخر عن عدم جدواه.

فأصبح أولئك القادة يصطدمون شيئا فشيئا بضغط الجماهير، العمالية منها بالخصوص، الذين بدأوا يصلون الى درجة الوعي ويطالبون، بالتالي، بتنظيمهم حتى يواصلوا النضال على طريقتهم الخاصة، ومن ثم يمكن القول إن الوطنية المغربية كانت تجتاز من أزمة دفينة. وقد يمكن وصفها بأنها أزمة نمو. ولكنها، في الواقع، كانت أكثر من ذلك. إنها تعلن عن تحول المسؤولية النضالية من النخبة الى مستوى الجماهير. ولم يكن من السهل على المسيرين القدماء أن يتكيفوا، بين عشية وضحاها مع هاته التطورات وأن يتحملوا المسؤولية في تطبيق أساليب النضال الجديد الذي أصبحت الظروف الطارئة تفرضه فرضا. ومن ثم ظهرت بعض الترددات والتخوفات، وانطلقت التساؤلات هنا وهناك، سواء داخل أوساط المثقفين أو في الإجتماعات ذات الطابع الشعبي.

أخذت شخصية ابن عبد الكريم تعظم وتفرض نفسها. فالمثال الذي قدمه منذ أزيد من عشرين سنة أصبح هو المثال الذي يجب أن يحتذى والذي لم يكن له من بديل. ولذلك، فإن فراره من قبضة المستعمرين ولجوءه الى مصر سنة 1947 كان حدثا يكتسي أهمية نفسية وسياسية في نفس الوقت. فكان بمثابة انتقام تأخر موعده، جاء ليشفي البعض من غليل المغاربة ويرد لهم دعما معنويا كانوا في حاجة إليه وهم يواجهون وضعية يطغى عليها الغموض.

فهل كان في مستطاع الرجل، بعد إحدى وعشرين سنة من النفي والصمت وبعد توقف طويل جدا، أن يربط خيط العمل من جديد وأن يحتل مكانه ضمن الجيل الصاعد من المناضلين والوطنيين؟

إن الذين اقتربوا منه عند نزوله في بور سعيد يقصون كيف أن ابن عبد الكريم ظهر لهم مترددا، وكيف أنه كان بعيدا عن الواقع، محروما من الأخبار عن كل شيء، وكأنه عائد من عالم آخر، وكيف أنهم احتاجوا إلى مناقشة طويلة وحجج دامغة ليحصلوا على قبوله مشروع الفرار من قبضة الفرنسيين. وإنه لتردد طبيعي من لدن رئيس ظل في المنفى زمانا طويلا ولم يكن يريد أن يتهور في المجازفة بالمستقبل خطوة هوجاء، سيما وهو لم يكن له سابق معرفة بالمغاربة الذين تسارعوا إليه في بور سعيد. والحقيقة أنه كان شديد الشوق ليسترجع حريته، كما ذكر ذلك هو بنفسه للصحافيين فيما بعد.

وطبيعي أن يكون الوطنيون الحاضرون بالقاهرة وبالأخص منهم بورقيبة وعلال الفاسي، قاموا بدور كبير في تنظيم ذلك الفرار بمساعدة الحكومة المصرية. وقد وجه المغرب الكبير بأسره تحية للحدث ملؤها الحماس والنظر بتفاؤل أكبر الى المستقبل، الذي كانت تغطيه آنذاك غيوم كثيرة.

ولم يطل ابن عبد الكريم الانتظار. فبدأ، أولا، بأخذ كل المعلومات الضرورية عن كل التطورات التي جرت بالمغارب بعد نفيه وعرف أي مرحلة وصل إليها النضال التحرري في كل بلد، ومواقف الحركات في كل واحد منها. وعند ذاك قرر أن يشارك في الكفاح الوطني القائم بالوسائل المحدودة التي كانت رهن إشارته بعاصمة الكنانة. وجاء حضوره للقاهرة ليمنح قضية المغرب العربي وثبة عظيمة في الشرق الأوسط كما يتجلى ذلك من تسلسل الأحداث ومن شهادات شهود لا تناقش

خبرتهم السياسية. ومن المعلوم أن المسؤولين في بلاد الشرق العربي كانوا يجهلون الكثير عن المغرب ونضال شعوبه. وبرغم تصريحاتهم الملأى بالعطف والتضامن، فقد كانوا يظلون، في الغالب، بعيدين عن مسار القضية وغير مكترثين لها. ولما حل الوطنيون المغاربة بالقاهرة كلاجئين، وجدوا أن عملهم الأول يجب أن يكون إعلاميا وتبشيريا، فاضطروا، في البداية، أن يقتصروا على اتصالات محدودة في نطاق ضيق. فلما جاء ابن عبد الكريم، اتسع صدى القضية وتوغل الى الأوساط المسؤولة وبدأ التضامن العربي يظهر أكثر فصاحة وأقوى فعالية، وبالأخص في الأمم المتحدة. ومن دون شك أن عرب المشرق تأثروا كثيرا بالسمعة المعنوية التي احتفظ بها رجل أصبح من أعلام التاريخ وكان يشخص النضال الوطني بكل ما يحمل من معاني الرجولة والشجاعة.

وتشجع ابن عبد الكريم بما أحيط به من مساندة وعطف وتقدير، فاستأنف العمل، بعد توقف طويل، ووضع نفسه، من أول وهلة، في إطار مغاربي. ولم ينطلق في موقفه من فكرة ظرفية عابرة. بل كان، منذ البداية، مقتنعا بوحدة المغرب. بل إنه وجه، غير ما مرة، أثناء حرب الريف نداءات الى «الإخوان في الجزائر وتونس».

وأنشأ، إلى جانب مكتب المغرب العربي الذي كان موجودا، لجنة تحرير المغرب الذي أذاع نداءه الأول يوم 6 يناير 1948، وقد ورد فيه:

«... وفي هذا الوقت الذي تعمل فيه على تطمين مستقبلها، وتتطلع فيه أقطار المغرب العربي الى استرجاع استقلالها المغصوب وحريتها المضاعة، يتحتم على جميع زعماء المغرب أن يتحدوا، وعلى كافة الأحزاب الإستقلالية أن تتآلف وتتساند، إذ إن هذا هو الطريق الوحيد الذي سيوصلنا إلى تحقيق غاياتنا وإدراك أمانينا.

وإذا كانت الدول الاستعمارية على باطلها تحتاج الى التساند والتعاضد لتثبيت سيطرتها الإستعمارية، فنحن أحوج الى الإتحاد وأحق به من أجل إحقاق الحق وتقويض أركان الإستعمار الغاشم الذي كان نكبة علينا، ففرق كلمتنا وجزأ بلادنا وابتز خيراتنا، واستحوذ على مقاليد أمورنا، ووقف حجر عثرة في سبيل تقدمنا ورقينا. ثم حاول بكل الوسائل أن يقضي على جميع مقوماتنا كأمة عربية مسلمة.

ويسرني أن أعلن أن جميع الذين خابرتهم في هذا الموضوع من رؤساء الأحزاب المغربية ومندوبيها بالقاهرة قد أظهروا اقتناعهم بهذه الدعوة واستجابتهم لتحقيقها وإيمانهم بفائدتها في تقوية الجهود وتحقيق الاستقلال المنشود.

ولقد كانت الفترة التي قطعناها في الدعوة للإئتلاف خيرا وبركة على البلاد. فاتفقت مع الرؤساء ومندوبي الأحزاب الذين خابرتهم على تكوين «لجنة تحرير المغرب العربي» من سائر الأحزاب الاستقلالية في كل من تونس والجزائر ومراكش على أساس مبادىء الميثاق التالي....».

ثم يسرد البيان تلك المبادىء بالتفصيل والتوضيح وعددها ثمانية نذكر منها: الاسلام، العروبة، الاستقلال التام، رفض كل تفاوض مع المستعمر من أجل حل توفيقي أو تسوية سياسية غير الاستقلال، إلتزام الأحزاب المنتمية للجنة بالتشاور معها في حالة إجراء اتصالات سياسية مع المستعمر. وهذه، بالاجمال، هي النقط التي كانت تلتقي الأحزاب الوطنية حولها بالاجماع.

ونلاحظ، أيضا، من خلال النص، أن ابن عبد الكريم كان يتصور عمله لا كرئيس حزب يدعو البعض ويلغي الآخرين، ولكن كرجل حريص، قبل كل شيء، على جمع شتات الوحدة الوطنية، على نطاق المغرب الكبير. فهل كان يغرق في الحلم؟ وهل كان ينجذب نحو المثالية الجوفاء؟ لست أعتقد ذلك. بل إن الذي يتراءى لنا من خلال موقفه هو مزاج القائد العسكري المحنك الذي وراءه ماض، والذي يريد أن ينظم أمة بكاملها من أجل الكفاح. وهذا ما يشف عنه الإستنتاج الذي انتهى إليه البيان:

«ومنذ الآن، ستدخل قضيتنا في طور حاسم من تاريخها، وسنواجه المغتصبين ونحن قوة متكتلة تتكون من خمسة وعشرين مليونا، كلها مجمعة على كلمة واحدة وتسعى لغاية واحدة هي الإستقلال التام لكافة أقطار المغرب العربي.

وسنعمل على تحقيق هذه الغاية بكل الوسائل الممكنة في الداخل وفي الخارج كلما استطعنا الى ذلك سبيلا. ولن يجد المستعمر بعد اليوم لتثبيط عزائمنا وإيقاع الفتنة بيننا واستغلال تعدد الأحزاب وتفرق الكلمة لاستعبادنا وتثبيت أقدامه في بلادنا.

فنحن في أقطارنا الثلاثة نعتبر قضيتنا قضية واحدة، ونواجه الإستعمار متحدين متساندين. ولن يرضينا أي حل لا يحقق استقلالنا الناجز وسيادتنا التامة...».

وهنا نثير نقطة تحتاج إلى شيء من التحقيق التاريخي قبل المضي في تحليلنا. وتتعلق بمصدر البيان والأفكار التي يعبر عنها. وأعتقد أن خير مرجع نستند إليه في الموضوع هو علال الفاسي، الذي ذكر في كتابه «الحركات الإستقلالية في المغرب العربي». كيف أن فكرة التنسيق بين الأحزاب الوطنية في المغرب العربي انبثقت عن مؤتمر المغرب العربي الذي انعقد بالقاهرة فيما بين 15 و 22 فبراير 1947 أي قبل تحرر ابن عبد الكريم بشهرين والذي أشار في إحدى توصياته على ضرورة «تكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل لكفاح مشترك». لكن الفكرة أخذت بُعْداً أكبر مع حلول المجاهد الريفي بالقاهرة، إذ اتجهت أنظار الأحزاب الوطنية «لتحقيق هذه التوصية بكيفية أوسع تحت رئاسة زعيم المغرب العربي ومجاهده الأول». كما يقول علال الفاسي. وتطلب إيجاد اللجنة جهودا كثيرة من الإتصال والتفاوض بين الأحزاب المختلفة للوصول إلى اتفاق. «وبعد مداولات ومناقشات عديدة ـ يقول علال الفاسي ـ انتهينا لغاية موفقة هي تأسيس «لجنة تحرير المغرب العربي» من كل الأحزاب التي تقبل مبادئنا وتعمل وفق خطتنا».

يتضح مما سبق أن مضمون الوثيقة والمبادىء التي ارتكزت عليها كانت ثمرة عمل جماعي، وهو شيء طبيعي. لكن لهجتها وصياغتها كانت ـ على الأرجح ـ من عمل ابن عبد الكريم الشخصي، خصوصا إذا تمعنا في قراءة الفقرة الأولى منها التي يتحدث فيها عن نفسه ولجوءه إلى مصر. ويتأكد ذلك من رواية علال الفاسي عند حديثه عن إذاعة البيان، إذ يقول: «وفي اليوم المحدد وزع البطل الريفي وثيقة التحرير على الصحافة العربية والأجنبية التي خصصت لها مكانا ممتازا.» وطبيعي أن يكون لابن عبد الكريم ضلع كبير في تحرير هاته الوثيقة، لأن الوطنيين كانوا في حاجة إلى مشاركته الفعالة، ولأن المشروع سيكون له صدى أكبر ومصداقية أعمق في العالم، إذا ما تبين أنها صادرة عنه مباشرة.

وما كنت لأتوقف طويلا عند هاته النقطة لولا أن البيان يجدد الخطاب الوطني ويغيره تغييرا عميقا. فما أبعده عن تلك النصوص السابقة التي كانت تقتصر على التحليل والنقد وتقف عند حد نقطة الإنطلاق والتحرك! إنه يعبر عن إرادة واضحة

ويحدد أهدافا وخطة للعمل ويستنفر المغاربة للدخول في معركة التحرير، ويستنكف مسبقا عن كل خطوة يشتم منها ضعف أو تخاذل. وهنا ألمس أثر المجاهد الريفي وصرامته العسكرية في تحرير البيان.

وهكذا، تأسس مكتب لجنة تحرير المغرب من محمد بن عبد الكريم رئيسا وأخيه امحمد وكيلا دائما، والحبيب بورقيبة أمينا عاما، وامحمد بن عبود أمينا للصندوق. وأما الأحزاب المؤسسة للجنة فكانت تضم: الحزب الدستوري الجديد والحزب الدستوري القديم بالنسبة لتونس، وحزب الشعب الجزائري بالنسبة للجزائر، وحزب الإستقلال وحزب الشورى والإستقلال وحزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية بالنسبة للمغرب. ومن بين الشخصيات الوطنية المشاركة يجب أن نذكر محيي الدين القليبي والحبيب ثامر من تونس والشاذلي المكي من الجزائر وعلال الفاسي ومحمد العلمي وعبد الخالق الطريس من المغرب، إلى جانب عدد آخر من المناضلين الشباب.

وما أن تولت اللجنة مهامها حتى بدأت تهتم في مرحلة أولى بجمع الوسائل المادية للدخول في معركة التحرير بصورة فعالة. وهكذا، كلف ابن عبد الكريم الزعيم بورقيبة في مارس 1948 بمهمة لدى رؤساء الدول العربية. وأتيحت الفرصة للزعيم التونسي كي يزور عدة عواصم عربية ويتصل في كل مكان بكبار المسؤولين، ويتلقى كل ما أمكن من المساعدات والتشجيعات والوعود. وهكذا، أصبحت قضية المغرب أكثر اشتهارا ووضوحا لديهم، وغدت الحكومات العربية تدرك أن عليها واجبا لابد من أن تقوم به نحوها. ونجد، مرة أخرى، في هذه الظاهرة إحدى النتائج المترتبة عن الوقع الذي صادفته شخصية ابن عبد الكريم في الشرق العربي.

حينما نلقي نظرة على الطور الأول من عمله بعد عودته من المنفى، لا نتمالك عن الإعجاب بمحافظته على عدد من المزايا الخلقية والنفسية التي يتميز بها الزعيم والقائد، وأعني بذلك سعة الأفق الفكري ووضوح الخطة وأهمية الأهداف. مما يدفع بالمؤرخ للتساؤل: لماذا لم تتواصل محاولته لأطول مدة؟ أليس هنالك فكرة تجنيد شعب من أجل تحقيق أهداف واضحة وجمع الوسائل الأولى للدخول في المعركة باللجوء إلى تضامن الأقطار العربية؟ نعم ولكن جرت الرياح بما لا تشتهي السفن. فالنشاط الذي جرى فيما بعد، في ظروف التشتت والفوضى والارتجال داخل المغرب الكبير،

كان من الممكن أن يتم بصورة أقوى تنظيما وتنسيقا وفعالية، لو أن بيان لجنة التحرير وقع تنفيذه بتصميم وإرادة. وبعبارة أخرى، لو أن الأعمال تجاوبت مع النوايا لاستطاع ابن عبد الكريم، وحوله كل الوطنيين والمناضلين من المغارب، أن يقود معركة التحرير، على نطاق المنطقة بكاملها، وفي نفس الوقت أن يقتصد كثيرا من الزمان، وكثيرا من التضحيات بالأرواح البشرية.

ولكن، لسوء الحظ لم تسر الأحداث على هذا المنوال، إذ تبين أن اتحاد الوطنيين حول ابن عبد الكريم كان حدثا سطحيا وهشا لأن أي زعيم من الزعماء الحاضرين بالقاهرة لم يشأ أن يقوم بالتزام حقيقي. فكل واحد ظل مرتبطا، قبل كل شيء، بحزبه وحاشيته الشخصية. ومعنى هذا أن ما كان يشاهد آنذاك في القاهرة لم يكن وحدة حقيقية، وإنما لقاء مؤقتا.

ولا شك أن البطل الريفي، الذي حمل المشروع محمل الجد، إذ كانت لجنة التحرير بالنسبة إليه هي الوسيلة الوحيدة للعمل، اضطر، في النهاية، الى مقاطعة مكتب المغرب، وهكذا فسر قراره بتصريح أدلى به للجريدة المصرية «آخر ساعة»، إذ قال وهو يذكر فراره إلى مصر في 1947:

«لم أكن آنذاك إلا رجلا يتحرر من النفي، بعد عشرين سنة قضاها في جزيرة «لاروينيون» وسط عالم أجنبي وكانت فكرتي هي أن أخدم بلادي بأي ثمن وأن أواصل الكفاح الذي ضحيت فيه بكل ما كنت أملك. وما أن وصلت إلى مصر حتى بدأت في العمل جهد استطاعتي من أجل أن أقوم بأي شيء لصالح بلادي المقطعة الى عدة أجزاء. فتحركت متوخيا أن لا أضع مصر في موقف حرج، وهي البلد الذي أكرمني بترحيبه. ولكن لسوء الحظ، فإن الإنتهازية أضرت بقضيتنا الوطنية، كما أضرت بكل شيء في المشرق».

وسيطول بي الأمر لو أردت أن أحلل بالتفصيل أسباب هاته القطيعة وأكتفي بتقديمها بكل إيجاز:

كان هنالك، بادىء ذي بدء، سوء تفاهم بين الوطنيين وابن عبد الكريم حول الدور الذي كان على هذا الأخير أن يقوم به. فبالنسبة للوطنيين، لم يكن تنظيم فرار الزعيم الريفي الى مصر الا حلقة تكتيكية في النضال ضد الإستعمار. فالبطل الريفي كان بالقياس إليهم تراثا نفيسا وأسطورة لابد من استغلالها. لكن، لم يكن يدور

بخلدهم أن يفوضوا لذلك الشيخ المجيد تولي القيادة الفعلية بنفسه وأن تكون له الكلمة الأخيرة في القرارات. فهذا أمر كان غير وارد. وإذن، فالزعيم الريفي، كان في نظرهم، يجب أن يكتفي بدور إسمي، دور رجل عاقل وحكيم يستمع إليه باحترام وتبجيل، ولكن دون أن يكون هناك أي التزام بالإمتثال لما يصدر عنه من آراء وتعليمات. الا أن ابن عبد الكريم، من جهته، لم يكن يقبل أن يدخل في هذه اللعبة. فما كانت شخصيته القوية لتسمح له بأن يقوم بدور هامشي، بل كان يريد أن يتحمل كليا كل مسؤولياته كرئيس.

كان ابن عبد الكريم يشعر بعد تجربة طويلة ومباشرة بانعدام أي وحدة حقيقية بين الأحزاب المغاربية. فقضايا الأشخاص والعصبيات والزعامات كانت تنزل بثقل كبير على تصريف الأمور، وكأن بذور التفرقة التي ستظهر فيما بعد استقلال المغاربة قد ألقيت في التربة منذ ذلك الوقت، بحيث إن فكرة الوحدة المغربية ظلت شعارا وزخرفة في الخطب، ولكن لا أحد كان يفكر فعليا، وبصورة جادة، في تطبيقها، ومع ذلك، فقد كان كل فريق يحاول أن يستفيد بطريقته من الرصيد المعنوي الذي كان يتوفر عليه القائد الريفي في المشرق كما في المغرب. وهنا يجب أن نذكر أن ابن عبد الكريم ظل الى سنة 1952، أي الى عهد قيام الثورة المصرية، هو القناة الوحيدة بين الوطنيين المغاربة والحكومة المصرية، لما كانت له من منزلة خاصة وكلمة نافذة لديها، ولدى الملك فاروق، بالخصوص. ووجد ابن عبد الكريم نفسه بين أمرين: إما أن يسير مع إحدى النزعات ويساندها، وإما أن يخرج من اللعبة بكاملها. وقد اختار، في النهاية، الحل الأخير. كان يعلم أن قوته الأساسية تكمن في ماضيه وفي أسطورته. فكان لزاما عليه، حينئذ، أن يحافظ على تلك القوة، وأن يضعها بمنأى عن كل المساومات. وهكذا، لم يجد بدا من المحافظة على استقلاله إزاء الأحزاب السياسية، ومن اجتناب أي تدخل في الخصومات التي كانت تفرق فيما بينهم. وعلى هذا الأساس وحده، كان يمكن لعمله أن يكون ناجعا وفعالا.

تأتي بعد ذلك قضية تتعلق بالمنهاج. فابن عبد الكريم كان يتصف بخصال رجل دولة، أي رجل قرار وتنظيم. فلا يعتبر السياسة غاية في ذاتها، ولكن وسيلة للوصول إلى بعض الأهداف. لكن الرجال الذين التقى بهم في القاهرة كان لهم

تكوين آخر حصلوا عليه في النضال اليومي داخل المدن، بما يقود إليه من أعمال كان القصد منها مضايقة الإستعمار بالاحتجاجات والمقاطعات والمظاهرات والاضطرابات، وما يدفع إليه من مناورات سياسية ومؤامرات حزبية. فكانت لهم، في الغالب، عادات أخرى ومزاج آخر.

وأثيرت قضية أخرى لتعليل موقف ابن عبد الكريم، وهي قضية السن والجيل. ولست أعتقد بأنها صحيحة. فكل الذين اقتربوا من ابن عبد الكريم في القاهرة لاحظوا يقظته وحيويته الفكرية. وبرغم السن، كان يمتلك دائما كل ملكاته الفكرية وأقتبس هنا ما عثرت عليه صدفة لدى أحد الصحافيين الفرنسيين «روني برانيليك» من مجلة «فرانس إيلستراسيون» الذي زاره في فبراير 1953 أي بعد حدوث القطيعة بينه وبين المكتب. فيقول:

«إن ابن عبد الكريم نشيط جدا، برغم مرضه ونهى الأطباء إياه، إنه يستقبل الناس كثيرا ويهتم بالسياسة الأفريقية الشمالية والعالمية. وما زال يسجل تعاليقه في الملفات».

ولا شك أن من أسباب النزاع بين الأحزاب المشاركة في لجنة تحرير المغرب العربي المنزلة المتميزة التي كان يحتلها المغرب داخل المنظمة، بسبب شخصية ابن عبد الكريم، أولا، ومشاركة عدد من المناضلين المرموقين الى جانبه مثل أخيه امحمد وعلال الفاسي الخ.. بحيث إن بورقيبة بعد أن شارك في المشروع مشاركة فعالة ككاتب عام، اضطر في النهاية الى نفض يده من العمل في المنظمة وإلى العودة الى تونس. فهل كان ذلك بدافع الغيرة والاستياء كما يفهم من تعليق المؤرخ شارل أندري جوليان؟ أ لأن بورقيبة غير منظوره السياسي؟

مهما يكن، فإن الاتجاه الذي سار فيه بعد عودته الى تونس كان متناقضا مع الالتزام الأساسي الذي قبل به في لجنة تحرير المغرب العربي. وهنالك بالطبع التنافر الشخصي الذي نشأ بين الزعيمين بعد أن تم الاتصال والتعارف فيما بينهما. لكن بورقيبة، على ما يظهر، مل من رحلته الى الشرق العربي وبدأ يستشرف آفاقا أخرى تدفع به إلى محاولة التفاهم مع المستعمر مباشرة. فهو يكتب لولده الذي كان ما يزال طالبا بباريس بتاريخ 12 دجنبر 1948:

«تتصور بعض الأوساط الفرنسية أني سأخضع لما لابد منه، للأمر الواقع، إما بدافع الملل أو بدافع الطموح: الطموح الى أن أتولى أحد مناصب الوزارة. وجوابي واضح وبيّن. إذا كانت فرنسا عازمة، بالفعل، على أن تنهج سياسة منح الاستقلال الذاتي، فإننا قابلون للتعاون معها سواء داخل الحكومة أو خارجها. وإن مسألة المراحل ثانوية اذا أمكننا أن نتفق على الغاية...».

هكذا نشأت «البورقيبية» ذلك المذهب الذي طغى على المراحل الأخيرة من الكفاح الوطني التونسي والذي أثار تحفظات من جهات وطنية أخرى في المغارب.

والذي يجب إدراكه في تلك المرحلة السياسية الدقيقة التي كانت ترهص لمفاجآت وتقلبات هو أن ابن عبد الكريم أراد من زعماء الأحزاب وكبار المناضلين والمسؤولين في معركة التحرير الوشيكة أن لا ينساقوا في الطريق السهلة وأن لا يجلبهم الخصم إلى التفاهم والاتفاق بأبخس الأثمان. فكان من المنتظر أن يصطدم معهم. فهو، مثلا، لم يكن راضيا عن المفاوضات من أجل الاستقلال الذاتي في تونس التي قبلها بورقيبة باتفاق مع مانديس فرانس. فيقول للصحافي إدوار سابليي: «إذا كانت فرنسا تريد اجتناب حرب «هند صينية» جديدة، فمن المستعجل أن تتخذ تدابير مهمة «أي أن تتفهم بصدق مطامح الشعب التونسي. وهو ما وضحه، في نفس الاستجواب عندما عرض لقضية المغرب، مبديا أن حل المشكل لا يكمن، فقط، في إرجاع الملك الشرعي إلى عرشه، بل لابد من معالجة المشكل في عمقه والاعتراف بمطامح المغرب الى الإستقلال.

فابن عبد الكريم وجد نفسه، منطقيا، منساقا إلى مواقف الوضوح والصرامة في الوفاء للمبادىء، لقد اختار، في النهاية، موقف القائد الذي لا يقبل التنازل أو التلاعب، أي الموقف الذي يتلاءم مع طبيعته كما برزت أيام الثورة الريفية. ثم إنه لم يكن يغتفر للفرنسيين مشروعهم المكيافيلي في استغلال شخصيته وسمعته لمضايقة محمد الخامس والسلطات الاسبانية في منطقة حمايتهم (...) فكان لابد له من أن يرد على أصحاب هاته اللعبة القذرة باللغة التي تشفي غليله وتبكتهم. وبعد هذا وذاك، كيف يمكن لقائد مثله قاسى الأمرين من خصومه وغرب عن وطنه الى أقصى الأماكن، وحرم من أبسط الأشياء في منفاه مثل الراديو والسيارة، أن لا تهتز كرامته

للإنتقام وأخذ الثأر، على الأقل بمواجهتهم في الميدان السياسي والعسكري إن اقتضى الحال؟

وهذا ما أدركه الصحافيون الفرنسيون منذ الوهلة الأولى. يقول جورج فابياني في صحيفة «ليبراسيون» بتاريخ 3 يونيو 1947: «من العبث أن نخفي عن أنفسنا أن مكانة الزعيم الوطني المغربي جاءت في الوقت المناسب لتشجع أوساطا متزايدة العدد من أجل تحقيق حلمهم في سبيل بعث مملكة شريفة مستقلة.-أما الصحيفة اليمينية «لوبيي» فقد ورد فيها، في نفس التاريخ، بقلم «دو كوراب»: «هكذا صنعنا بأيدينا «هوشيمينه» جديدا. وإذا كانت الجامعة العربية في حاجة إلى جنرال لمحاربتنا، فإن حكامنا أمدوها به بكل أمن واطمئنان». عرف المسؤولون الفرنسيون، أن الزعيم الريفي، برغم شيخوخته سيكيل لهم الصاع صاعين. وهذا ما يفسر حنقهم وحملتهم الصحافية عليه وعلى الجامعة العربية ومصر.

أما هو، من جهته، فلم يكن له إلا أن يتشبث بموقف الكرامة والشرف ويعلن عن مطالب المغرب، في غير مواربة ولا مداهنة. وسرعان ما انفصل عنه كل الراغبين في الحلول الوسطى، والقابلين للمساومة في الحقوق الوطنية المقدسة. في حين انضم إليه كل المتشددين في وطنيتهم، ويلاحظ «إدوارد سابليي» في مقال له أن مكتب المغرب العربي كان يضم من بين أعضائه البارزين علال الفاسي ومحمد خيضر، وصالح بن يوسف. وكل هؤلاء، رغم مقاطعة ابن عبد الكريم للمكتب، ما كانوا لينحرفوا عن خطه السياسي. وهذا في سنة 1954. ومن ثم كانت مواقفه تجاه الأحداث تتميز بالحزم والشجاعة والثبات. فقد كان، مثلا، يرفض كل الحلول الاصلاحية ويعلق على المشروع الفرنسي لإصلاح الحكومة المغربية بقوله: «برغم كون فرنسا تريد أن ترضي مطالبنا، فيظهر أنها لا تحترم مطامحنا العميقة. إننا نريد، أولا، الاستقلال التام، ثم إلغاء الحماية الفرنسية.» وورد في تعليق بجريدة «لاتريبون دي ناسيون» السويسرية (25 نوفمبر 1960) تعليق على لقاء جرى بين ابن عبد الكريم والمهدي بن بركة:

«إن ابن عبد الكريم يعد من رجال اليمين إذا اعتبرنا أن كل الأعيان الريفيين يتميزون بنزعاتهم المحافظة عن القادة الجدد للسياسة المغربية. وبرغم ذلك، فقد

اتخذ منذ استقراره بالقاهرة مواقف وطنية متطرفة جعلته يتمتع، منذ عودة محمد الخامس، بسمعة قوية كرجل غير متهاود مع فرنسا ومعاد للغرب».

ومن ثم كانت اللهجة التي يخاطب بها فرنسا قوية ومغذية لعاطفة المغاربة، ابتداء منه هو الأول. فمن تلك الخطابات قوله للفرنسيين:

«إذا ذهبتم كأصدقاء طيبين، ومدركين أن هذا هو الموقف الذي بقي لكم، فستحتفظون بمنزلتكم كاملة. ولكن إذا تصرفتم في ظروف سيئة، وستنصرفون قطعا، فلن يبقى لكم أي شيء. فكل التغييرات التي تفكرون فيها بالنسبة لنا هي أن ترقونا الى درجة مترجمين كبار بين شعبنا وبينكم، أو يقتصر الأمر على تبديل أشخاص بآخرين، لقد قمنا بحربين إلى جانبكم لنضمن لكم الإستقلال أو نموت. فلماذا تمانعون في استقلالنا نحن؟... لقد عزلتم المسيو لابون لأنه كان ضعيفا معنا. ووضعتم مكانه الجنرال جوان، معتقدين أن رجلا عسكريا سيخيفنا. إننا لا نهابه، ولكن الشيء الخطير هو أنه يعادي السلطان» (الفيغارو 22-23 جوان 1947).

وسرعان ما أدركت فرنسا أن الحركة الوطنية المغاربية انضافت إليها نزعة متشددة، مستعدة للنضال المسلح، ولم تعد تقتصر على مناضلين سياسيين يكتفون بالكفاح بالوسائل السلمية والمشروعة وأن ابن عبد الكريم أصبح، ولو من بعيد، هو المحرك لهذه النزعة والساهر على تدعيمهاماديا وايديولوجيا. وأن هذا الإتجاه يصادف تجاوبا كبيرا داخل الأوساط الشعبية. ففكرت لأول مرة بجد في تغيير خطتها السياسية بشمال أفريقيا وأدركت أن الأسلوب الإستعماري التقليدي أصبح متقادما وغير ملائم للوضع العالمي الجديد في وسط القرن المتسم بالمد التحرري وكانت هي الأولى تخبط خبط عشواء في الهند الصيني. لكن التغيير، كما تصورته في النهاية، لم يكن على أساس التحرير الحقيقي، وإنما بالإقتصار على إجراء عدد من الإصلاحات مع الإحتفاظ على المصالح الفرنسية الكبرى. وبدأت تبحث لأول مرة عن الوطنيين، لكن لا عن الوطنيين بالمعنى الصحيح، بل عن فئة خاصة منهم كان المسؤولون عن السياسة الإستعمارية يدعونهم «المعتدلين».

وهؤلاء المعتدلون هم الذين تحدث عنهم الجنرال جوان في خطابه بتاريخ 1 يوليو 1947، قائلا:

«إنهم يتكلمون عن الوطنية المغربية. إنني غير خصم لهذا الإتجاه. لكن هناك وطنية ووطنية. هناك وطنية معقولة تواجه المستقبل عن طريق التطور الذي هو مهمة فرنسا في المغرب بمقتضى عقد مايزال قائما. تلك المهمة التي ينبغي تأكيدها. لكن لهذا العقد حدا ومن الحماقة الإعتقاد بأن الحماية لا تنتهي. وفي اليوم الذي يكون المغرب قد كون رجاله الفنيين والاداريين سيحل عقد جديد محل معاهدة 1912 في شكل عقد مشاركة...».

وإذا كان مفهوم «المعتدلين» يطلق في طور أول على فئة من المتعاونين مع الإستعمار، فقد تطور بسرعة إلى أن بدأ يشمل فئات من الوطنيين الحقيقيين، لأن الإستعمار بدأ يبحث عن عناصر وهيئات لها وزن حقيقي، نظرا لتلاحق الزمان وضغط الأحداث. وقد سار بورقيبة في هذا التيار، عملا بسياسة المراحل «وكانت هذه السياسة هي أساس ذلك الإختلاف الذي سيزداد وضوحا مع الزمن بين كل من الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف».

ومن الطبيعي أن تتخوف فرنسا كثيرا من المشروع الذي بدأ يلوح به ابن عبد الكريم في خطبه ويعمل على تحقيقه. وإذا رجعنا إلى ما كتبه أحد المؤرخين المصريين الذين اهتموا بالفترة الأخيرة من حياته التي قضاها ابن عبد الكريم في مصر، أعني الدكتور جلال يحيى، فإن الزعيم الريفي هو الذي أشرف على وضع الخطة العسكرية التي ستتبع لتحرير أقطار المغرب العربي. وترتكز على الإكثار من فتح جبهات التحرير في أماكن مختلفة لتشتيت القوات الفرنسية والتمكن من مضايقتها وإضعافها، والسير في هاته الخطة قدما إلى أن يتم انسحابها. فتنسحب إسبانيا إثرها على الفور. وبذلك تحصل حركة التحرير على حيز واسع يساعدها على التزود بالسلاح والعتاد والتموين، وعلى إجراء كل المناورات والعمليات. وكانت الخطة تشتمل في المرحلة التالية على «قيام كل جيش تحرير في إقليمه، وفي تعاون وتكامل مع بقية جيوش التحرير في الأقاليم المجاورة. ومعنى ذلك نزول جيش التحرير الذي ينتهي من عمله في إقليمه الى الإقليم المجاور للعمل فيه، مادامت الوحدة بين الأقاليم الثلاثة هي هدف، بل أمل يراود الجميع»

لم تكن فرنسا مستعدة لا ماديا ولا معنويا لخوض حرب استعمارية في مواجهة برنامج عسكري خطير يجند كافة شعوب الشمال الأفريقي في حرب منسقة وقادرة على

أن تتحول الى حرب شعبية كما مارسها ابن عبد الكريم في العشرينات. وهذا ما جعلها تتجه شيئا فشيئا إلى فكرة التفاهم مع الوطنيين في تونس والمغرب، عسى أن تحتفظ بالجزائر كقاعدة للمحافظة على هيمنتها بمجموع الشمال الأفريقي. بحيث يسوغ القول إن الموقف المتشدد الذي نادى به البطل الريفي والذي كان يصادف المصادقة لدى أوسع الجماهير كان موقفا مثمرا وإيجابيا، إذ دفع بالمسؤولين الفرنسيين إلى مراجعة موقفهم كليا في ظرف وجيز وعجل باستقلال المغرب وتونس. ولنقل، بين قوسين، إن التسهيل والسرعة اللذين تم بهما استقلال المغرب هو الذي جعله يتغافل عن مشاكل الوحدة الترابية التي مازال يعاني منها إلى اليوم.

فابن عبد الكريم ندد، مثلا، باتفاقيات «إيكس ليبان» التي مهدت لاستقلال المغرب دون أن تصفي كل المشاكل السياسية. ولذا، فإنه توجه باهتمامه، في الأخير، إلى الثورة الجزائرية التي واصلت الكفاح، معتمدة في الغالب على الخطة التي نادى بها. والحقيقة أن استمرار الحرب في الجزائر كان يرجح لوضعيتها الخاصة، كأرض أراد لها الاستعمار أن تكون جزءا من التراب الوطني الفرنسي، فكان تشدد الحكومة الفرنسية، وكان إغلاق الباب أمام المطالب الوطنية الجزائرية. ومع ذلك، فقد ظهرت داخل صفوف الثورة الجزائرية نزعتان: **متشددة و معتدلة**. وكان الصراع قائما بينهما كما بين ذلك محمد حربي في كتابه «جبهة التحرير الوطني، سراب وواقع».

وكان ابن عبد الكريم، وهو يشرف من القاهرة على عمليات التحرير الجارية بالمغارب، يعمل على إفادتها «من جميع الإمكانيات والمواقف السياسية الموجودة أمامها، أفادت من وجود طرق مواصلات ودروب في الصحراء، لتزويد المقاتلين بما يلزمهم من إخوانهم العرب. وأفادت من وجود الطرق البحرية وسفن الصيد وغيرها، لتزويد جبهات التحرير وجيوشها في المغرب الأقصى بالإمداد اللازم. كما أفادت من ذلك التنافس والصراع القائم بين فرنسا وإسبانيا لتسهيل العملية، وخاصة بالنسبة للمغرب الأقصى، والتي كانت أقاليم الجزائر تفصلها على بقية أقاليم العالم العربي، خاصة وأن الثورة الجزائرية لم تكن قد أعلنت بعد».

فابن عبد الكريم وهو يشرف على تكوين جماعات الضباط والكوماندو المغاربية التي تكون فيها رجال مثل الهواري بومدين، أصبح بحكم موقفه المبدئي مع الجانب

المتشدد. وقد ظهر أثر ذلك حتى بالنسبة للثورة الجزائرية ذاتها التي مرت من أطوار وأزمات. وأذكر، على سبيل المثال، حمايته لعدد من المناضلين الجزائريين الذين رفضوا الإتجاه المعتدل الناشىء عن مؤتمر الصمام وتأسيس الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية. فقد ظهر تيار معارض داخل جبهة التحرير الوطني الجزائري لذلك الإتجاه. وكان من أبرز رجاله الكولونيل محمد عموري والكومندان مصطفى الأكحل من الولاية الرابعة ويذكر محمد حربي أن الرجلين «في المعركة التي دخلا فيها مع كريم بلقاسم، وزير القوات المسلحة، أتى الأول بالجنود، والثاني بمساندة المصريين والأمير ابن عبد الكريم وصالح بن يوسف». وقد إلتجأ مصطفى الأكحل، في الأخير، الى حماية ابن عبد الكريم لما فشلت المحاولة وألقي عليه القبض وفر من السجن.

ولا بأس أن أورد هنا، ختما لدراسة هاته النقطة، شهادة أحد الفرنسيين المعروفين بصداقتهم للوطنيين المغاربة، وأعني به المناضل الإشتراكي «جان روس» فقد أثار في لقاء خاص مع بورقيبة موضوع عبد الكريم وعلاقاته مع الأحزاب الوطنية المغربية. فأجابه الرئيس التونسي بأنه يفضل السكوت «لأنه يحترم كثيرا ابن عبد الكريم وما يمثله. لكنه أضاف بأن الأمر يتعلق بالصراع بين عصرين. فابن عبد الكريم هو عصر العمل المباشر والحرب. أما الآخرون فهم وطنيون أسسوا أحزابا مشروعة، ولم يكونوا يستبعدون العمل المباشر، ولكنهم اتخذوا استراتيجيات مخالفة. ثم قال لي بورقيبة: وعلى إثر ذلك، نشأت نزاعات. ولم نتمكن من التفاهم...»

ومهما اعتبرنا رأي بورقيبة كزعيم ومناضل وطني كبير، فلسنا ننسى أن استراتيجية ابن عبد الكريم أثمرت ثمارا جيدة وكانت السبب في التعجيل باستقلال تونس والمغرب كما ذكرنا من قبل. بل يجب أن نلاحظ، على ضوء الأحداث، بأن ابن عبد الكريم برز، في الأخير، أكثر اتفاقا مع الجيل الصاعد من أغلبية الوطنيين الحاضرين بالقاهرة. فقد كان يغلب على أولئك خطاب متلطف فلم يكونوا يدرجون في أحاديثهم وتصريحاتهم بكامل الوضوح اللجوء إلى العنف واستعمال القوة في نضالهم من أجل الإستقلال. بل إن الوسيلة الوحيدة والقصوى التي كانوا يلوحون بها هي رفع القضية أمام الأمم المتحدة. وهم، في ذلك كانوا بعيدين عن مناضلي القاعدة والجماهير الشعبية، التي اقتنعت منذ زمان بعيد بأن الكفاح المسلح هو الكفيل وحده بتحرير المغرب من ربقة الإستعمار. إن ابن عبد الكريم، بوصفه

رجلا قريبا من الأرض ومن حياة البادية كان أقرب الى تلك الجماهير، وكان يشعر بشعورها. فاللجوء الى الأمم المتحدة لم يكن هو الوسيلة الفعالة التي تتجاوب مع وضعية المغرب والتي يمكن أن تضمن له الاستقلال. فمما كان يقوله عن المنظمة الأممية منذ 1948:

«إن ما رأيناه أمام الأمم المتحدة ومجلس الأمن عن قضايا مصر وفلسطين والهند الصينية الخ... لا يلهمني أية ثقة أو، بالأحرى، يجعلني محترزا فيما يخص الأمل الذي يمكن أن نعلقه على اللجوء الى منظمات التحكيم الدولي. إن مشاكلنا لن تحل إلا بأيدينا، سواء بواسطة السلم أو بواسطة الحرب».

وقد جاءت الأحداث فيما بعد لتؤكد قوله. واضطر كل من التونسيين والمغاربة والجزائريين، بالتتابع، إلى تنظيم مقاومتهم المسلحة لانتزاع حقوقهم والدفع بالأمم العظمى إلى افتتاح عهد تصفية الإستعمار الذي ستستفيد منه أفريقيا بكاملها. ولكن حذار من أن نرى في ابن عبد الكريم رجل العنف المطلق الذي يظل مغلقا عن أساليب التفاهم والحلول السلمية. إنه، بالعكس، كان يبحث دائما عن أرضية لايجاد تفاهم مع الخصم. ولكنه كان يشترط لذلك أن يكون في إطار الكرامة والشرف وأن لا يقترن بأي تنازل عن مطلب جوهري. وللنصت الى هذا التصريح الذي أدلى به في سنة 1948:

«لتتحرك فرنسا في طريق الصداقة والتصالح والتفاهم التي تقود الى حل إيجابي، وذلك بالإعتراف بحريتنا واستقلالنا. تلك هي أمنيتنا. وإلا فستدرك فرنسا أننا لسنا بخلاء بأعمارنا وأننا لا نضيع أي لحظة تمر، وأننا نتهيأ للعمل السريع والحاسم».

إنه خطاب رجل واقعي عركته التجارب ويدرك بكل وعي أن قضية المغرب لن تتقدم بدون تضحيات ولا مجابهات عنيفة. ومن ثم فإن تلامذة عبد الكريم لم يكونوا يأتون من صفوف الوطنيين المثقفين والمتسيسين، ولكن من أبناء الشعب الذين برزوا في منظمات المقاومة وفي جيوش التحرير الوطنية بالمغرب الكبير.

إلا أن القطيعة مع مكتب المغرب لم تكن لتعني مطلقا القطيعة مع النضال ولا حتى مع الوطنيين أنفسهم. فهو حينما أخذ مسافة من الإبتعاد، استرجع حريته في الرأي وكان يتتبع تطور الأحداث بالمغرب الأقصى وفي المغرب الكبير. فكان يقدم تزكيته المعنوية للنضال التحريري. ويكفي أن نذكر هنا مثال الزعيم علال الفاسي

الذي لم يكن موافقا في البداية على الطريقة التي تم بها استقلال المغرب، والذي حينما عاد الى بلاده لم يشأ أن يشارك في اللعبة السياسية وظل منزويا في طنجة أمدا طويلا. فلا شك أنه تأثر كثيرا بموقف القائد الريفي. وهذا ما يدل عليه، أيضا، مجموع الخطب التي أذاعها من صوت العرب ونشرها في كتابه «نداء القاهرة».

ومهما يكن، فقد ظل ابن عبد الكريم محافظا على روحه النقدية حتى بعد حصول البلاد على استقلالها. فكان يتدخل كلما اقتضى الحال ليعبر عن شعوره إزاء السياسة المتبعة وإزاء التدابير المتخذة لا في هاته القضية وتلك. مما جعل كل قادة المغرب ومناضليه ورجال الوطنية وزعماء الأحزاب يتقاطرون عليه لزيارته. فكان البعض منهم يتخذونه مرجعا لهم. إلا أنه كان يظل محترزا ومتحفظا. وبرغم البعد، فقد صار بمثابة الضمير الوطني، وخاصة بالنسبة لأبناء المغرب الأقصى.

فظهر أكثر ثورية في تفكيره وتصوره للأشياء من كثير من السياسيين المغاربة الذين اقتربوا منه أو عملوا في دائرته. فنحن نعرف موقفه الصريح والصارم في قضايا ذات أهمية كبرى مثل اتفاقية «إيكس ليبان» في 1956، وقضية جلاء الجيوش الفرنسية وفي مسألة القواعد الأجنبية، وفي قضية الدستور والديموقراطية. وفي شهادة جان روس المشار إليها آنفا إشارة الى هذا الموضوع الأخير، إذ أبرز أن البطل الريفي لم يكن رجل حرب، ولكنه كان أيضا من رواد الديموقراطية بالمغرب.

نعم، إن ابن عبد الكريم، كغيره من بني الإنسان لم يكن يخلو من العيوب ولم يكن معصوما من الخطأ. ولكني حرصت في هاته الندوة المخصصة لإحياء ذكراه على أن أبرز ما هو أساسي في شخصيته وأن أرسم المثال الحي الذي مازال يقدمه، عن جدارة، للإجيال الجديدة بالمغرب. كما حاولت أن أبين أن الدور الذي قام به في المرحلة الأخيرة من حياته لم يكن يقل أهمية عن الدور الذي مارسه كقائد للثورة الريفية.

محمد بن عبد الكريم
ونشوء الفكر الوطني المغربي

من أهم المواقف في حياة الشعوب مواقف الرفض، لأن الظلم والعدوان دخلا في العلاقات بين الشعوب منذ فجر التاريخ، ولأن منطق القوة وقانون الغاب كان وما زال يتحكم في العالم. ويكفي أن نذكر كمثال قضية الشعب الفلسطيني الذي يسلم الكل في العالم بمشروعية مطالبه، وتسانده كل المنظمات الدولية في نضاله من أجل بناء كيانه، ولكن ما زالت القوة الغاشمة تحول دون إدراكه لحقوقه. لولا أن الشعب الفلسطيني أعلن عن رفضه بالإستماتة والدخول في معارك متواصلة مع عدوه لضاعت قضيته ولما وجدت من يؤمن بها ويساندها.

فمواقف الرفض تمتاز بروعتها وتكون أشد إثارة للإعجاب والتعاطف من غيرها، لأن وراءها يكمن صراع بين ظالم ومظلوم، بين قوي يجعل من هواه مقياسا للحق ومستضعف لا يرضى بالهوان ويثور لردع الطغيان والانتصاف من عدوه.

ولطالما عرف المغرب في تاريخه العريق بمواقف الرفض، ولو أردنا أن نضرب الأمثال على ذلك منذ عهد الإستعمار الروماني إلى اليوم لاستطعنا أن نملأ كتابا ضخما. ويكفينا أن نقف عند قرننا الحالي الذي ما زالت أحداثه حية في الخواطر والأفكار لتأتي بشواهد ناطقة بليغة. فما أكثر الرجال الذين وقفوا في وجه الإستعماريين الفرنسي والاسباني ليقولوا: لا. وشفعوا قولهم بالكفاح الطويل والجهد المتواصل! فها هو ماء العينين يهب من جوف الصحراء ويتجه على رأس أتباعه نحو الشمال الى أقاليم سوس والأطلس تحدوه فكرة انقاذ المغرب من هجوم الاستعمار. وها هو موحى الزاياني يقف شوكة في حلق الاستعمار الفرنسي ويدخل معه في معارك ضارية، وها

هو محمد أمزيان يقف، من جهته، في وجه العدوان الإسباني بشرق الريف ويواصل كفاحه الى الموت[1].

وها هو محمد بن عبد الكريم الخطابي يقوم بأعظم ثورة شاهدها الإستعمار فيما بين الحربين العالميتين حتى أصبحت خطته الحربية نموذجا يدرس ويسترشد به في كل الحركات التحررية العالمية، وها هي الحركة الوطنية التي أمسكت المشعل من يد المجاهدين في الجبال والسهول تدخل في لون آخر من الكفاح الشعبي وتتحول الى حركة عصرية بأسلوبها ووسائلها.

إن هاته السلسلة الذهبية من مواقف الرفض هي التي أيقظت الضمير الوطني لدى الشعب المغربي وغذته باستمرار وجعلت المخططين لحركة التحرير الوطني يضعون المنهاج الأصلح لتحقيق الأهداف المنشودة بعد المرور من تجارب مختلفة ومحاولات متوالية لتصحيح المسيرة وإيجاد الأداة الصالحة لمعركة التحرير.

لكن، حينما ننظر الى الخطة التي سلكتها حركة التحرير الوطني في معركتها الأخيرة فيما بين 1953 و 1956، نجد أنها لم تجد غنى عن الرجوع الى منهاج محمد بن عبد الكريم الخطابي. ففي بداية تلك الفترة، نشأت حركة المقاومة الوطنية المغربية في المدن الكبرى وكان هدفها هو عزل الإستعمار داخلها والقضاء على معنوية أعوانه وأنصاره من المغاربة. وقد تحقق ذلك الهدف، بالفعل، في ظرف وجيز، بحيث أصبح المقاومون المغاربة يخرجون بأسلحتهم في الشوارع ويقومون بعملياتهم الفدائية، فيجدون تضامنا كليا من أبناء الشعب، ويحاول الإستعمار بكل وسائله ومغرياته الكثيرة أن يحصل على من يبلغ عنهم، فلا يتوصل لأي شيء[2].

كان السعي للسيطرة على المدن أول مرحلة في مسار المقاومة المغربية. الا أنها، برغم أهميتها، لم تكن كافية لإلحاق الضربة القاضية على الإستعمار. فلا ننسى أن هذا

---

(1) محمد أمزيان : من الوجوه الوطنية التي بدأنا نتعرف عليها مؤخرا من خلال بعض الدراسات نذكر منها:

- الحاج العربي الورياشي: الكشف والبيان، G.AYACHE: «les origines de la Guerre du Rif», p. 136-153.

- عثمان بناني: الاستعمار الاسباني والمقاومة الوطنية في شمال المغرب، عمل ما يزال مخطوطا.

(2) ما زالت المقاومة المغربية قبيل الإستقلال في حاجة الى تاريخ، يمكن الرجوع الى صحافة الوقت، هناك دراسة موسعة بالفرنسية عن الحركة الوطنية في هذا العهد. S.BERNARD: «Le Conflit Franco-Marocain», p. 1945-56.

الأخير كان يعتمد على البادية ويحاول أن يجعل منها خليفه ضد المدن. ويكفي أن نذكر كشاهد على ذلك أن المؤامرة التي أقامها ضدا على الحركة الوطنية تزعمها بعض المتواطئين معه من رجال البادية، قبل كل شيء، ثم لا ننسى واقعا آخر له ثقله في الميزان وهو أن الأغلبية الساحقة من الشعب المغربي تعيش في البادية لا في المدن. وكان حساب المستعمر هو أنه ما دام يسيطر على البادية، فلا خوف عليه من تنطع بعض المدن. فكان لا بد من أن تنتقل المقاومة من المدينة الى البادية لتفتح هنالك واجهة أخرى وتنقض ذلك الحساب من أساسه. وهذا الانتقال فرض على الحركة كما هو معلوم، أن تكتسي لونا جديدا وتأخذ بتنظيم آخر يتلخص في كلمة جيش التحرير[3].

هاته الواجهة الجديدة التي فتحتها المقاومة المغربية في البادية هي التي تجعلنا نقول، اليوم، ان قادتها ومخططيها لم يجدوا مناصا من الرجوع الى منهاج محمد بن عبد الكريم. وفي هذا الموقف خير ثناء عليه وتنويه بحصافته وبعد نظره. وفي هذا الصدد نجد المستشرق الفرنسي المعروف «ريجيس بلاشير» يقول في بحث له بعنوان: «الثورة الريفية صورة مسبقة عن عمليات التحرير في المغرب»:

«لقد صادف ابن عبد الكريم سوء حظ كبير. فقد كان الحق معه، ولكن قبل الأوان بخمس وعشرين سنة. فلو أن حوادث 1925 جرت في سنة 1952، لكانت أهمية الرجل ومعنى نضاله، على ما أعتقد، يختلفان بكثير عما حدث في الواقع»[4]

كل هذا يعني أن حركة التحرر الوطني في المغرب اتبعت خطا جدليا في مسارها، فبعد مرحلة الكفاح المسلح التي بلغت أوجها في ثورة الريف، جاء طور الكفاح السياسي الذي انتظم في المدن الكبرى وانضمت إليه شيئا فشيئا الطبقات الكادحة من موظفين صغار وحرفيين وعمال. لكن تبين في نهاية هذا الطور أنه لا بد من العودة الى الكفاح المسلح، سيما وأن الجماهير التي انضمت الى صفوف الحركة الوطنية لم تكن مقتنعة بالمشروعية الإستعمارية التي تسمح بوجود أحزاب معتدلة

---

(3) جيش التحرير، هو أيضا في حاجة الى من يكتب تاريخه. أنظر: Ch.A. JULIEN: «Le Maroc face aux Impérialismes», p. 459.

(4) أنظر مقال بلاشير في كتاب «Abdelkrim et la République du Rif», Maspero, p.159.

تمارس نشاطها في إطار قانوني، وهكذا شكلت تلك العودة التي أخذت طلائعها تلوح منذ بداية الخمسينات ارتباطا جديدا ووثيقا مع ثورة محمد بن عبد الكريم بعد أن وقع الانفصال عنها نوعيا ومنهاجيا ابتداء من 1926.

ومن دون شك أن هذا الانفصال كان ضروريا حتى تختمر حركة التحرر الوطني وتسري في المجتمع بسائر مستوياته وطبقاته وتدرك كفايتها من النضج لا كتنظيم نضالي فحسب، ولكن كفكر وتخطيط ومشروع مستقبلي. فتخليها عن الكفاح المسلح لا ينقص من قيمتها وأهميتها كمرحلة حيوية وفعالة في سير القضية الوطنية قدما الى الأمام. وليس العنف وإراقة الدماء غاية في حد ذاتها أو الوسيلة الوحيدة الكفيلة بتبليغ الدعوة. فقد جاء وقت أصبح من الأفيد أن تغمد فيه السيوف وتترك الكلمة لرجال السياسة وأصحاب الدعوة الخطابية وتدرس قضية التحرر من سائر وجوهها ويسري الوعي بها في سائر الأوساط الشعبية حتى لا تبقى قضية نخبة أو قضية طبقة معينة في المجتمع. ولذا كان لا غنى للحركة الوطنية عن انتهاج أسلوب جديد يرتكز على شيء من المهادنة مع الحكم الإستعماري وان كان لا يرفض الدخول معه في معارك سلمية [5].

لكن الذي يثير اليوم إعجابنا هو أن الثورة الريفية حملت كل المعاني والمضامين التي تمخضت عنها الحركة الوطنية في كل مراحلها التالية، مما يجعلنا نتساءل هل أضافت تلك المراحل شيئا جديدا إليها، على المستوى الفكري والإيديولوجي. لا شك أنه كانت إضافات نذكر منها، مثلا، تنظيم الطبقة العاملة كقوة سياسية نضالية وإدخال الصحافة كأداة كفاح. لكن، هل شكل ذلك الإنفصال قطيعة، بكل معنى الكلمة؟ الواقع أننا اذا أمعنا النظر في الإتجاهات والغايات الجوهرية، لا نجد إضافات بكل معنى الكلمة. بل نلاحظ، على الرغم من التغيير الكبير الذي طرأ على إطار العمل والقيادات وخطة النضال، ارتباطا واستمرارية بين المرحلتين، ويكفي أن

(5) شارل أندري جوليان: المصدر السابق. لا أدل على ذلك من تحرير «مطالب الشعب المغربي» في هذا الظرف.

نقف لحظة قصيرة عند الثورة الريفية فنحلل بعض ظواهرها لنتأكد من احتوائها على كل البذور التي ستنمو بها الحركة الوطنية [6].

لقد قدمنا منذ البداية تلك الثورة كحركة رفض. فماذا كان يعني ذلك الرفض. بصورة دقيقة؟

إنه كان يعني بالنسبة لابن عبد الكريم رفض الاستعمار كلا أو جزءا دون أي تنازل. فمن بعد نظره انه كان لا يغتر بوعود الدول المستعمرة وتمويهاتها فيؤمن بفائدة السياسة الإصلاحية في ظل النظام الاستعماري أو بما دعي، أحيانا، سياسة المراحل، بل كان يرى أن الحل الصحيح يكمن في تصفية الاستعمار دفعة واحدة والحصول على الاستقلال التام الناجز، صحيح أنه قبل في مرحلة ما من حياته أن يعمل مع الإسبان في مليلية وأن والده آثر الحوار السلمي مع الدولة المستعمرة على لغة السيف والبندقية طوال فترة مديدة. ولكن هل يصح لنا أن نستنتج من ذلك أن الرجلين كانا راضيين عن النظام الاستعماري وكانا يتعاونان معه من صميم قلبيهما؟ [7].

هنا، يجب أن نفرق بين نوعين من الرجال: الرجل الذي يندفع مع عاطفته بدافع الغيرة والشهامة، ولكن ربما تهور وكشف نفسه للعدو قبل الأوان فاقتنص بكل سهولة ولم يكن لتحركه أي أثر فعال، والرجل الذي ينطلق من التصور الإسلامي بأن «الحرب خدعة» فيسكت عاطفته الجياشة ليفكر في عمل جاد بكامل الوعي والهدوء ولا يعلن عن نفسه الا في الوقت المناسب. فالثورة التي كان يفكر فيها محمد ابن عبد الكريم ووالده كانت تقتضي فترة طويلة من التروي والتهيؤ، من جهة، والتستر التكتيكي، من جهة أخرى، لقد كان عليهما أن يعرفا العدو ووسائله الحربية وأساليبه السياسية وحلفاءه من المغاربة، وكان عليهما، في نفس الوقت أن يجسا نبض مجتمعهما ليدركا مبلغ استعداده للثورة في وجه الإستعمار وقدرته على الصمود والتضحية، ومن الصعب علينا أن نسلم بالفرضية التي تقول بأن ابن عبد الكريم

(6) مقالنا بالفرنسية في الكتاب المشار اليه آنفا M. ZNIBER: «Le rôle d'Abdelkrim dans la lutte pour la libération nationale..» Abdelkrim... p.489 : انظر نصه العربي في هذا الكتاب.

(7) أثير المشكل في دراسة الأستاذ جيرمان عياش المشار إليها آنفا. وفي جواب الاستاذ محمد الطاهري المنشور بالعلم بتاريخ 4 شتنبر 1982 وكذلك بجريدة L'Opinion في نفس المدة.

أنظر العدد بتاريخ 3 شتنبر 1982 M. TAHIRI : «Les archives coloniales auront-elles le dernier mot?»

كان متعاونا مع الإسبان مؤمنا بفكرة التعاون ثم انقلب فجأة وكأنه حدث له نوع من الكشف والتجلي الذي يتحدث عنه الصوفية، ومهما يكن، فنحن بإزاء نقطة مهمة في تاريخ المجاهدالريفي تتطلب استحضار كل الشهادات والوثائق المعروفة والغميسة. ولكن من المؤكد أن ابن عبد الكريم كان مؤمنا، منذ أول يوم، بفكرة الاستقلال الناجز. ولربما أخذت على نزعة عاطفية في مثل هذا الإعتقاد ولذلك، فأنا أترك الكلمة لباحث أجنبي معروف بالصراحة والدقة في التحليل وأعني به «دافيد مونتغمري هارت» السوسيولوجي الأمريكي الذي اهتم كثيرا بالريف، فهو يقول في بحث له:

«طالما قيل ان السي محمد تغير موقفه من الإسبان بعد الخصومة التي جرت بينه وبين الجنرال فرنانذز سلفستر وما ترتب عنها من سجن القاضي. اننا نعتقد، على العكس من ذلك، أن ذلك التغير حدث له لما أدرك نتائج السيطرة الاستعمارية على المغرب، سواء كانت اسبانية أم فرنسية. والواقع أنه كان يريد استقلال الريف بأي ثمن. ولما غادر مليلية في أواخر الحرب العالمية الأولى، على أساس أن لا يرجع إليها، وعاد الى بيته في أجدير حيث التحق به أخوه السي امحمد، كان آنذاك رائدا للوطنية المغربية»(8).

هكذا يبدو من الواضح أنه ليس من المعقول أن نربط ابن عبد الكريم الثوري بانضمام فجائي الى فكرة الوطنية، فمثل هذا التفسير يحتاج الى تفسير آخر لا يخلو من إشكال، كما أنه ليس من المعقول أن نبحث عن جذور حركته في أحداث عرضية مثل خصومته الشخصية مع الجنرال سلفستر. وقديما ميز المؤرخون بين الأسباب الحقيقية وأسباب المناسبة(9).

وبعد قيام الثورة، نجد أن ابن عبد الكريم يردد رفضه البات للإستعمار ومطالبته بالإستقلال الكامل في وثائق رسمية وفي تصريحات فاه بها للصحافيين وفي مقابلات كانت له مع الدبلوماسيين أو الوفود التي ترددت عليه. وقد كان الإسبان عالمين باتجاهات محمد ابن عبد الكريم الوطنية ورغبته في الإستقلال منذ سنة 1915

(8) «Abdelkrim et la République...», ص.42.

(9) أنظر كتاب جيرمان عياش ومقال م. الطاهري المشار إليها آنفا.

أي قبل قيام ثورته بست سنوات. فقد ورد في تقرير ضابط المخابرات الذي أجرى التحقيق معه في بيته بمليلية يوم 15 غشت 1915 ما يلي:

«محمد بن عبد الكريم يكره الفرنسيين ويريد القتال ضدهم بجميع الوسائل. بالنسبة لاسبانيا، فإنه يريد أن تحتفظ المناطق التي لم تحتلها إسبانيا باستقلالها، ويأمل أن تظل هذه المناطق مستقلة بعد نهاية الحرب...»(10).

ومن المعلوم أن محمد بن عبد الكريم أعلن استقلال الريف اثر مؤتمر عام دعا إليه مندوبين عن القبائل في أجدير يوم 18 يناير 1923 وبذلك حقق الخطوة الأولى نحو استقلال المغرب. وبعد مرور أزيد من عشرين سنة على نهاية الثورة وعودته من المنفى، نجده يعبر عن هاته الفكرة بأبلغ تعبير في البيان الذي قدمه بالقاهرة باسم لجنة تحرير المغرب العربي، مبرهنا بذلك على ثباته على نفس المبدأ. ونقتطف من ذلك البيان قوله:

«الإستقلال المأمول للمغرب العربي هو الإستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة تونس والجزائر ومراكش».

«لا غاية ينبغى إليها قبل الإستقلال».

«لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن النظام الحاضر».

«ولا مفاوضة الا بعد الإستقلال»(11).

تلك هي الشعارات التي رفعها محمد بن عبد الكريم من جديد سنة 1948 والتي ستصبح هي شعارات الحركة الوطنية في كل أقطار المغرب العربي بعد أن مرت من مرحلة إصلاحية وقبلت التعامل بشكل من الأشكال مع النظام الإستعماري.

هنالك، بالطبع، أسباب تاريخية وجيهة تفسر موقف الحركة الوطنية الاصلاحي. فقد قامت بعد أن فشلت المقاومة المسلحة وأصبح الإستعمار في أوج غطرسته وطغيانه. فكان لابد للوطنيين من أن يبحثوا عن أرضية لفتح الحوار مع المسؤولين عن النظام الإستعماري. ثم إن أولئك الوطنيين بدأوا ثلة قليلة وسط اليأس

(10) نقل الاستادعثمان بناني فقرة مهمة من رسالة الجنرال خوردانة تتضمن هذا الحكم. أنظر: «الاستعمار الاسباني...» ص. 77.

(11) نشر ذلك البيان في صحف الوقت.

القاتم المخيم على نفوس الجماهير وفي مواجهة أعوان الاستعمار وأذنابه، وكانوا يعملون في بعض المدن ومن ورائهم مضايقات السلطة ومتابعة المخابرات الإستعمارية. لكن هذا الموقف الاصلاحي لم يكن الا مرحليا وكان محكوما عليه بالفشل مسبقا. ومن حصافة الرأي عند ابن عبد الكريم أنه أدرك، منذ أول وهلة، أن الهدف الحقيقي من الكفاح الوطني هو الاستقلال[12].

هذا فيما يخص موقف الرفض. لكن الأولوية التي أخذها هذا الموقف في ثورة محمد بن عبد الكريم لم تكن تعني الانغلاق على جوانب أخرى تتعلق بالمستقبل، بناء مغرب جديد متحرر من عقابيل التخلف، مساير للعصر، ساع للتقدم في كل مجالات الحياة الفكرية والمادية، ولقد رأينا الحركة الوطنية المغربية تعمل على وضع تصور للإصلاح في المغرب، وانبثقت جهودها في هذا الصدد عن البرنامج الذي قدمته في 1934 والذي يتناول قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وتشريعية بحيث أنه يشكل كلا متكاملا[13].

وهنا نجد، أيضا، أن الثورة الريفية سبقت الى طرح هاته القضايا بصورة عملية، فلم تكتف بالتفكير فيها وطرحها على بساط البحث والتنظير، بل لربما اتخذت في شأنها حلولا عملية. ولذلك يكون من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على البرامج والانجازات التي قامت بها الثورة الريفية.

1 - انشاء قاعدة شعبية سليمة واعية

لقد عرف أبناء الريف منذ قرون عديدة بشجاعتهم وروحهم الجهادية واستماتتهم في الدفاع عن كرامتهم وحريتهم. يكفي أن نذكر أنهم كانوا يعيشون في واجهة بحرية مهددة على الدوام بالغزو الأجنبي، وأنهم قاوموا بثبات كل المحاولات العدوانية التي أقدم عليها الإسبان في شواطئهم. لكن المجتمع الريفي كبقية المجتمع المغربي كان يمر في تاريخه من فترة تخلف وانحطاط من أخطر ظواهرها التفكك

(12) الرشيد ادريس ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة يقدم المؤلف ابتداء من ص. 122 معلومات عن نزول ابن عبد الكريم في القاهرة بالاضافة الى نص البيان.

(13) مطالب الشعب المغربي 1934 أعيد طبعها مؤخرا بالمطبعة الملكية.

والإنقسام الناشىء عن طغيان الروح القبلية وضعف عوامل الالتحام والتآزر. فكانت عادة الانتقام وأخذ الثأر بصورة فردية أمرا جاريا به العمل، ويكاد يكون مقبولا، ومن الظواهر السلبية الأخرى تقاليد اللف والقسم الجماعي وأداء الحق. فكان هنالك صنفان من القوانين المطبقة في ذلك المجتمع : الشريعة الإسلامية، من جهة، والقاعدة أو العرف، من جهة أخرى. وكان من عواقب هاته المفارقات والتناقضات تغلغل الروح الفوضوية الى بنية المجتمع مؤدية به الى العجز عن تكوين قوة موحدة أمام الأخطار الوشيكة والمحدقة به من كل جهة. وكل هذا كان، بالطبع، في صالح المشاريع الاستعمارية المخططة في المغرب[14].

فكان أول ما فكر فيه ابن عبد الكريم حينما تولى القيادة أن تناول كل تلك التقاليد القبلية بالاصلاح الجذري، فألغى الاعراف وأحل قوانين الشريعة الاسلامية، وكأنه تنبأ بما سيقوم به الاستعمار من تلاعب في هذه القضية، مثل الظهير البربري الذي استصدرته الحماية في سنة 1930، مستغلة ظاهرة الاعراف والتقاليد المحلية، فالحل الذي لجأ إليه ابن عبد الكريم في العشرينات هو الذي تبناه المغرب المستقل في الخمسينات، حينما قرر تصفية السياسة البربرية الاستعمارية. لكن ميزة ابن عبد الكريم أنه بادر الى تلافي الخطر قبل حدوثه آخذا بمبدأ: «الوقاية خير من العلاج»[15].

لقد كان في حاجة الى تكتيل الناس حوله بخلق مجتمع منسجم تقل فيه التناقضات، وتقوى عوامل التلاحم، ولا يتحقق ذلك الا في دائرة توحيد القانون. فكان من الطبيعي أن يتجه الى المصدر التشريعي المقدس عند كل المغاربة الا وهو الشرع الاسلامي. في ذلك دلالة على الاتجاه الايديولوجي الذي سارت فيه الثورة - انه اتجاه إسلامي إصلاحي سلفي مبني على التفتح تجاه المدنية العصرية ومكاسبها في ميدان التقدم العلمي والتقني. وهو الاتجاه الذي كان له آنذاك صدى قوي في المجتمعات الاسلامية، وكان وراءه أسماء لامعة مثل الأفغاني وعبده ورشيد

(14) لعل أهم دراسة عن المجتمع الريفي وبني ورياغل، بالخصوص، هي: HART. DAVID M.: «An ethnologic survey of the rifian tribe of Aït Waryaghil». Tamuda II, 1954. يضاف اليه المقال المذكور من قبل.

(15) علال الفاسي: السياسة البربريه في مراكش - القاهرة 1952.

رضا[16]. ونلاحظ هنا، أيضا، أن هذا الاختيار المذهبي الذي اخذ به ابن عبد الكريم في بداية العشرينات والمبني على نبذ الاعراف والقبلية والعنصرية والرجوع الى مبادىء السلفية هو، بالضبط، الاختيار الذي تبنته ودعت إليه الحركة الوطنية في الثلاثينات واتخذت منه حجة في دعايتها وصحافتها وخطبها واتصالاتها بالجماهير. فنرى هنا، أيضا، نوعا من الاستمرارية بين ابن عبد الكريم وبينها.

وهذا لم يمنع الزعيم الريفي من الاستفادة من تجارب الامم المتقدمة وتفكيرها في شؤون التطور والاصلاح. وعلى سبيل المثال، نجد أن القاعدة الشعبية التي بنى عليها حركته اجتهد في أن ينشئها على أساس نواة لأمة عصرية تقوم على مبدأي التنظيم والتآزر سواء في شؤون السلم أو في شؤون الحرب وتجعل للمواطنة حقوقها وواجباتها، في نفس الوقت الذي تفسح المجال للجماعة كي تعبر عن رأيها وتتخذ قرارها بطريقة ديمقراطية. وحينما يذكر أزرقان، وزير الخارجية للثورة الريفية، في مذكراته قبائل الريف الثائرة، يشير الى كونها تجمع بين قبائل تتكلم الأمازيغية وهي الأكثرية وأخرى تتكلم العربية الدارجة ومن بينها بني يطفت وبني بوفراح ومتيوة ومسطاسة وبني جميل[17] مما يدل على أن فكرة السلالية كانت ملغاة من تلك القاعدة الشعبية وأن ابن عبد الكريم، ولو أكثر الحديث عن الريف في تصريحاته، فإنه كان ينزه قاعدته الشعبية عن أي عصبية ضيقة، أليس وزيره أزرقان هو الذي سيتكلم في مفاوضات وجدة باسم حكومة الريف والجبل؟

معنى هذا أن ابن عبد الكريم كان له تصور عصري للوطن، خلافا لما كتب أو قيل. واذا أردنا أن ندرك حقيقة فكرته، يجب أن نميز بين ما هو ظرفي وما هو أساسي في تصريحاته فلا نؤاخذه ببعض التناقضات التي قد يضطر اليها الرجل السياسي، سيما اذا كان تحت ضغط الاحداث. فالوطن كما كان يتصوره هو الوطن الذي يتلقى فيه جميع المغاربة متساوين في الحقوق والواجبات متعاونين من أجل تقدمهم

(16) كل الأبحاث تشير الى سلفية ابن عبد الكريم: ولكن الموضوع مازال في احتياج الى المزيد من البحث والتدقيق، يشير الأستاذ عثمان بناني الى أنه كان مسؤولا عن أخبار العالم العربي في جريدة «تلغراف الريف» الاسبانية من 1907 الى 1915، وانه هو ووالده كانا يناصران الدولة العثمانية، وكل هذا يبين مدى اتصاله مع الفكر الجديد الوارد من الشرق العربي.

(17) M.TAHIRI Analyse de «Dill al Warif...».

وتنميتهم. وهنا أيضا نجده يخط نفس التصور الذي ستسير عليه الحركة الوطنية فيما بعد.

2 - فكرة الوحدة المغربية

لقد كان ابن عبد الكريم يؤمن بهاته الفكرة التي شغلت وما تزال أذهان الوطنيين والملاحظين السياسيين في العالم. وإيمانه بها يتجلى لنا في النداءات التي وجهها لشعوب المغرب الكبير لايضاح أهدافه وإبراز المقاصد من ثورته، ولمطالبتها بسندها المعنوي والمادي وكان الفرنسيون لا يتورعون عن تجنيد عدد من الجزائريين والتونسيين والإتيان بهم الى الواجهة الريفية لضرب إخوانهم، وبذلك يقتصدون في إراقة الدماء الفرنسية التي طالما أثارت تخوفات البرلمانيين الفرنسيين. فكان هذا أحد الأسباب التي جعلته يتجه بالخطاب الى أبناء المغرب الكبير. فنجده، مثلا، يقول في أحد تلك النداءات:

«إن أربعة أخماس الجيوش التي هي على حد ودنا شاهرة السلاح في وجهنا هم من أبنائكم، أيها الاخوان أفما من الواجب عليهم أن ينقضوا على أعدائنا المشركين المضطهدين لنا ولكم ويديروا سلاحهم عليهم، عملا بما توحي به الحمية الاسلامية والغيرة الجنسية، اتباعا للأوامر النبوية الشريفة: إن المؤمن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا» الحديث[18].

وإيمانه بالوحدة المغربية هو الذي جعل الحركات الوطنية في أقطار المغرب ترشحه لرئاسة لجنة تحرير المغرب اثر عودته من المنفى ونزوله بالقاهرة. وهو الذي قال في البيان الذي أصدره باسم تلك اللجنة:

«وفي هذا الوقت الذي تعمل فيه الشعوب على تطمين مستقبلها وتتطلع فيه أقطار المغرب العربي إلى استرجاع استقلالها المغصوب وحريتها المضاعة، يتحتم على جميع زعماء المغرب ان يَتَّحِدُوا وعلى جميع الأحزاب الاستقلالية أن تتألف وتتساند إذ أن هذا هو الطريق الوحيد الذي سيوصلنا الى تحقيق غاياتنا وإدراك أمانينا.

(18) أنظر الوثيقة التي حللناها بجريدة المحرر بتاريخ 27 يوليوز 1978 تحت عنوان: «وثيقة تاريخية تحتفظ بجديتها وتربط الماضي بالحاضر.». وهي منشورة في هذا الكتاب.

«وإذا كانت الدول الاستعمارية، على باطلها تحتاج الى التساند والتعاضد لتثبت سيطرتها الاستعمارية فنحن أحوج الى الإتحاد وأحق به من أجل احقاق الحق وتقويض أركان الاستعمار الذي كان نكبة علينا ففرق كلمتنا وجزأ بلادنا وابتز خيراتنا واستحوذ على مقاليد أمورنا ووقف حجرة عثرة في سبيل تقدمنا ورقينا. ثم حاول بكل الوسائل أن يقضي على جميع مقوماتنا كأمة عربية مسلمة»[19]، تصريح مهم لا بالنسبة لوحدة المغرب الكبير، ولا بالنسبة لتأكيد الإطار الذي يجب أن يسير فيه تطوره وهو إطار العروبة والاسلام.

3 ـ اتجاه نحو ارساء الديمقراطية العصرية بالمغرب

من مميزات الثورة الريفية أن قائدها لم يشأ أن يجعل منها قضية شخصية أو عائلية، بل فكر أن يجعل منها قضية الشعب المحيط به وأن يدفعه لتحمل مسؤوليته فيها حتى تكون مساهمته فيها عن اقتناع ووعي صحيح، فيشعر كل واحد بواجبه كمواطن وتتلاحم الجهود الفردية مع بعضها فتشكل قوة نضال ذات فعالية كبيرة. ولذلك فهو لم يفكر في أن يفرض شخصيته بالقوة على الرجال المحيطين به، وهذا لا يعني أنه لم يكن يحركه أي طموح. الا أن الطموح أشكال وأنواع، والنوع الذي كان يحدو ابن عبد الكريم هو الذي يجعله يتوصل الى الرئاسة نزولا عند رغبة الجماعة المحيطة به، وبطلب من القاعدة[20]. وهكذا فهو لم يقبل منصب الزعامة والقيادة الا بعد أن انتخبه أعيان القبائل بمحض إختيارهم، ويوضح لنا ابن عبد الكريم نفسه في المذكرات التي سلمها للقبطان الفرنسي «سانيو» الذي رافقه الى المنفى سنة 1926 بأنه لم يصادف لأول وهلة كل الموافقة من شيوخ الريف. لأنه لم يكن يريد الدخول في الحرب مع الإسبان قبل أن يستنفذ وسائل المفاوضة السلمية الرامية الى المحافظة على استقلال الريف. وسرعان مازال هذا الخلاف حين ظهر موقف الجنرال سلفستر المتصلب، من جهة، ودسائس بعض المتعاونين مع الإسبان من بني ورياغل، من جهة أخرى[21] والحدث يبين أن شيوخ بني ورياغل لم يرشحوا ابن عبد الكريم

(19) اقتباس ورد في كتاب البيان المذاع بالقاهرة، والمشار اليه آنفا.
(20) كل المراجع التي ذكرنا متفقة على ذلك.
(21) «Mémoires de la Réunion», Traduction du regretté Thami El-AZEMMOURI. (مخطوط)

اعتباطا، ولكن بعد اختيار مبني على ترو وتشاور. ثم انهم في الاجتماع الذي عقدوه بالقامة بمحضره بينوا له، كما ورد في نفس المذكرات، أنهم يريدون تأسيس مجلس عمومي للتشاور في سياسة الريف، يكون معززا في نفس الوقت بجهاز للدفاع يستطيع أن يجابه الخطر الذي كان يهدد البلاد[22]. كل هذا يعطينا فكرة عن الجو الديمقراطي الذي كانت تتخذ فيه التدابير الأولى لإطلاق شرارة الثورة.

ونجد كل الذين درسوا ابن عبد الكريم دراسة علمية صحيحة يشهدون له بهاته الروح الديمقراطية. فالأستاذ «جيرمان عياش»، مثلا، يقول ان ابن عبد الكريم كان مسلحا بوطنية «تثير الإعجاب بمفاهيمها العصرية كالتقدم وحرية الفكر والديموقراطية»[23]. ومن التصريحات التي فاه بها الزعيم الريفي كجواب على دعوة من جمعية طلبة «بوينوس آيرس» قوله: «لا يوجد أي حق أكثر قداسة ودواما من حق الشعوب في تقرير مصيرها وحقها في أن تختار النظام الذي ينسجم مع عقليتها ومع إرادتها. ان الشعب المغربي يناضل من أجل نفس المثل الأعلى الذي ناضل من أجله أبطال شعبكم»[24].

وقد قدمت عدة تحليلات عن التنظيم السياسي الذي أقامه ابن عبد الكريم لحركته، فنجد أصداء مفيدة عن ذلك عند علال الفاسي والمؤرخ السوري أمين والباحثة السوفياتية «لوتسكايا» وعبد الرحمن اليوسفي وجرمان عياش ومحمد الطاهري وعثمان بناني الخ. . .[25] وكلهم أبرزوا هذا التركيز على الديموقراطية الذي سار فيه ابن عبد الكريم، هذا مع العلم بأن ظروف الحرب التي وجد فيها منذ أول يوم، كانت تفرض أسلوب السلطة ولغة الأمر والنهي.

(22) نفس المرجع وكذلك دراسة م. الطاهري المشار اليها من قبل.
(23) G.AYAVHE : «Les origines...»
(24) اقتباس وارد في الكتاب المذكور آنفا ...Abdelkrim
(25) أشرنا الى كثير من هؤلاء المؤلفين وذكرنا تآليفهم ونضيف إلى ذلك:
- **علال الفاسي**: الحركات الإستقلالية في المغرب
- **أمين سعيد**: الثورة العربية الكبرى.
- **لوتسكايا** باحثة سوفياتية اهتمت بثورة الريف ونشرت عنها أبحاثا مختلفة، نذكر منها بالخصوص:
A propos de la structure intérieure de la République du Rif».
- **عبد الرحمان اليوسفي**: ساهم هو أيضا ببحث مهم عن مؤسسات الثورة الريفية في كتاب Abdelkrim...
- **البوعياشي**: حرب التحرير الريفية 2/57.

وهكذا نجد ان ابن عبد الكريم يعين رئيسا للمجاهدين إثر اجتماع عقده زعماء قبيلة بني ورياغل في القامة بتاريخ 10 مايو 1921 وعرف باجتماع قسم القامة. ويشير البوعياشي في كتابه «حرب الريف التحريرية» الى اجتماع آخر جرى قبل ذلك بإيزورن في 20 شتنبر 1920 وأدى فيه القسم وتقرر أن الجهاد مسألة جماعية وتأخذ الديموقراطية شكلا أكثر وضوحا في الاجتماع الذي جرى بظهر السلوم سنة 1923 ونصب فيه ابن عبد الكريم أميرا للمجاهدين، وقد صدرت عن ذلك الاجتماع وثيقة وجدت مدرجة في الأوراق الخاصة بابن عبد الكريم بوزارة الخارجية الفرنسية. ونقتطف منها هاته الفقرة:

«ولما كانت قبائل الريف وقبائل الجبال قبل هذين العامين في غاية من الفساد وكثرة الجهل والطغيان والعناد وعن الشريعة في غاية الانحراف والابعاد، وعظم الظلم بين العباد، حتى تعذرت المقاصة ممن كان ذا شوكة في البلاد. واستمروا على التعصب والقتل والسلب للأموال مع ما مسهم من عدوهم من عظيم الفتنة والأهوال، حتى لا ملجأ ولا مفر لهم الا ما يأتيهم من قبل الكبير المتعال. فلما أعياهم هذا ولا يعلمون دواءه، طلبوا من يقوم بأمورهم على سبيل الإستنابة فأجمعوا رأيهم وأسندوا أمرهم بالهام إلاه السماء والأرض الى من أحمد أفعاله في البسيطة طولها والعرض، فلبى بنعم لمرغوبهم وقام بشؤونهم واحالهم، أولا، على متابعة شريعة الرسول التي يدرك بها كل مأمول بعدما أخذ عليهم في المصحف العقود والمواثيق والعهود، فأسس بنيانهم عليها والمؤاخذة بمقتضاها، ثم نظمهم وعلمهم كيفية الحروب والدفاع عن الوطن، وكيفية الهجوم على عباد الصليب والوثن فاغتنموا الفرصة في عدوهم في الحين، فأصبحوا في وقتهم عليه ظاهرين، ولم يعبأوا بما جلبهم وأتاهم به من المستنبط العجيب ولا منعهم ما تحصن به من الشكل الغريب، بل دكه كله وصار من جملة قول كان،،، الخ...»[26]

فإذا أمعنا النظر في هاته الفقرة، نجدها تبين:

(26) من أوراق ابن عبد الكريم المودعة بوزارة الخارجية الفرنسية.

1) أن تعيين قائد الثورة أو «أمير المجاهدين» حسب تعبير الوثيقة أمر صادر عن القاعدة الشعبية التي هي قبائل الريف وجبالة وهذا ما تبينه الإمضاءات الواردة في آخر الوثيقة.

2) ان هذا التعيين ليس صادرا عن دوافع المجاملة، وانما تقديرا لصفات موضوعية كان يتحلى بها المرشح وهي: التقوى وروح الالتزام والشجاعة وحسن التدبير والمعرفة بالحرب.

3) ان هذا التعيين كان على سبيل **الإستنابة** بمعنى أن ابن عبد الكريم كان من ورائه جماعة تراقبه وتتبع أعماله بوصفه يمثلها ويعمل بتفويض منها.

4) ان الوثيقة تؤكد ما ذكرناه آنفا من اتجاه الثورة الى تأليف مختلف العناصر وتوحيدها بقصد إيجاد أمة عصرية مترفعة عن الإقليمية والقبلية. فهي تنطق باسم قبائل الريف وجبالة.

ولم يقف هذا الاتجاه نحو الديمقراطية عند حد تعيين القائد العام، بل تجاوزه الى احداث مؤسسات نكتفي الآن بالاشارة السريعة اليها. فكان هنالك:

1) دستور يشتمل على أربعين مادة تنص على انتخاب الأجهزة المسيرة للدولة.

2 ـ ميثاق وطني يتضمن التزامات، منها:
- رفض الاعتراف بكل ما يرتبط بعقد الحماية المبرم في 1912
- الإعتراف باستقلال الريف،
- إقامة حكم دستوري.

3 ـ **المجلس الوطني**: مجلس الأمة وهو السلطة العليا في تسيير كل شؤون الثورة. وكان يتركب من رؤساء المجاهدين وله حق التقرير.

4 ـ **المجلس الحربي**: كان تابعا لوزارة الحرب في الحكومة الريفية وينفذ التوجيهات العامة لمجلس الأمة.

4 ـ المركزية واللامركزية:

كان لا بد من الملاءمة بين هذين الأسلوبين المتناقضين، سيما ومثل هذا التنظيم العصري كان يطرح مشاكل تطبيقية في بلاد تعودت على إدارة عتيقة ترجع

الى العصر الوسيط. فكان الأخذ بمبدأ المركزية في التوجيه والقرار العام الذي ينطبق على الثورة ككل وكان الأخذ بمبدأ اللامركزية في التنفيذ حتى تتحمل كل جهة مسؤوليتها.

تلك نظرة سريعة جدا على بعض المؤسسات التي تشخص نوعا من الديمقراطية في طور النشوء طبعا، لم يكن هذا هو الجانب الذي أخذ باهتمام المغاربة يومئذ، فالثورة الريفية كانت في أعينهم قبل كل شيء معركة تحريرية ضد دول مستعمرة ومجموعة من الإنتصارات التي تغذي عاطفتهم وتحي الأمل في نفوسهم. أما التنظيمات والابتكارات التي أتت بها الثورة في السياسة الداخلية وتنظيم الحكم فلم يعيروها نفس الإهتمام. ولذلك فما زال هنالك مجال للقول والبحث الواسع في هذا الموضوع المهم، لأن الوثائق والشهادات والمصادر الغميسة، ومن ضمنها مذكرات محمد ابن عبد الكريم، ما زال لم يتم جمعها كلها والتعرف عليها من لدن الباحثين والمؤرخين.

وكل ما نستطيع أن نقوله بتمام اليقين أن هذا الاتجاه نحو الديموقراطية تدعم بصورة تلقائية بالروح التقليدية التي كانت سائدة بين قبائل الريف والتي تتمثل في غيرتها على حريتها وحرصها على محاسبة كل من يتحملون مسؤولية باسم الجماعة. وابن عبد الكريم نفسه يقدم لنا أمثلة على ذلك في المذكرات التي سلمها للضابط «سانيو»، ومن ثم نرى اهتمام المسؤولين في حكومة الثورة بنظام الجماعات المحلية، فكانت تنتخب شيخها في كل سنة.

والملاحظة الأساسية التي يجب أن نبديها في الختام هي أن الزعيم الريفي أقدم بجرأة على الدخول في المسلسل الديمقراطي برغم كل العراقيل التي كانت في طريقه والتي نذكر منها، على الخصوص:

1) الحرب: ان اللعبة الديموقراطية لا يمكن أن تتمشى بصورة منتظمة مع ظروف الحرب وقد شاهدنا أعرق الدول في الديموقراطية تحد من سلطات برلماناتها في الحرب العالمية الأخيرة، مثلا.

2) التخلف الفكري والتاريخي الذي كان يعاني منه المغرب والذي لم يكن يسهل اقرار ديموقراطية حقيقية بالبلاد.

3) العراقيل المدبرة من الاستعمار على المستويين الايديولوجي والاعلامي.

كان الاستعمار يحاول تشويه كل المحاولات التي فيها تطوير وتحديث للمجتمع المغربي عن طريق أشخاص أو جهات سارت في ركابه مثل بعض العملاء وبعض الزوايا، وكان يسمم الرأي العام عن طريق صحفه وعن طريق السلطات المحلية التي كانت تقوم أيضا بدور إعلامي.

4) ضعف التيار التحرري في العالم: كانت قضية تصفية الاستعمار ما زالت لم تنضج في الرأي العام الدولي، وكان في طوق دول استعمارية مثل أنجلترا وفرنسا أن تفعل ما تشاء في البلاد الخاضعة لها. فكانت تعمل على خنق كل اتجاه ديموقراطي في مستعمراتها وكبت كل حركة وطنية تحررية. وهكذا لم يجد ابن عبد الكريم من يسانده مساندة فعالة في سياسته الديموقراطية والتنموية، كما حدث للحركات التحررية التي قامت بالعالم في الأربعينات والخمسينات.

مما تقدم يتبين لنا أن الزعيم الريفي كان سباقا الى عدد من الأفكار التي أخذت بها الحركة الوطنية السياسية ابتداء من الثلاثينات. ونحن نعرف الكثير عن ابن عبد الكريم كقائد عسكري، ولكن يجب ان نتعرف عليه، أيضا، كمفكر سياسي. والحركة الوطنية لم تكن مجرد سلسلة من المعارك، بل كانت كذلك مصدر تفكير، فهذا الجانب يستحق أن ينال نصيبه من اهتمام المؤرخين. وفي نظري، يمثل الزعيم الريفي انقلابا من هاته الناحية. لقد كان النضال الوطني يتجلى في المقاومة المسلحة التي قامت في عدد من البوادي. وحين ننظر الى رجال من نوع موحا وحمو وسيدي رحو وغيرهما، نجد أن عنصر الفكر كان ينقص تحركهم أو، بالأحرى، انهم كانوا يعيشون فكريا على الماضي، ولم يكن لهم أي أفق مستقبلي. في حين كانت المدن غير متعودة على الكفاح المسلح، لأسباب يطول شرحها وليس هذا محلها. فكانت تعتمد على المخزن في حمايتها ومما يؤثر عن أهل بعض المدن أنهم قالوا حينما طولبوا بمجابهة العدو في الميدان: «مانضربو، مانهربو، مانقدو على فتنة». وهو قول يعبر عن واقع جدير ببحث خاص.

فابن عبد الكريم كان هو أول من غير هاته المعطيات في المجتمع الريفي، اذ ابتكر أسلوبا يجمع بين العمل العسكري والفكر السياسي وهو الأسلوب الذي سيفرض نفسه، من جديد، في أقطار المغرب العربي الثلاثة تونس والجزائر والمغرب

الأقصى عند إقدامها على معركة التحرير الأخيرة والحاسمة. كما أن ثورته كان فيها استنهاض لأبناء المدن وإخراجهم عن السلبية التقليدية.

إن هاته الريادة التي تميز بها محمد عبد الكريم الخطابي تجعلنا اليوم، وقد مرت مائة سنة على ميلاده، نعتز به ليس فقط كرجل لمع نجمه في تاريخنا، وإنما كمصدر حي ومهم من مصادر فكرنا الوطني المعاصر الخاص بشؤون البلاد ومستقبلها ومن ثم كان البحث عن مخلفاته الفكرية وجمعها أمرا يجب أن يحظى ببالغ الإهتمام.

رسالة للخطابي
يفضح فيها الحزب الاستعماري

من العبارات الواردة بكثرة في تصريحات محمد بن عبد الكريم «الحزب الإستعماري». فما الذي جعل عبد الكريم يلجأ إليها بدل الإقتصار على كلمة استعمار وحدها؟

هذا راجع، أولا، إلى عمق الإدراك السياسي الذي عرف به ابن عبد الكريم والذي تعززه بلاغته الفطرية في التعبير. صحيح أن كلمة استعمار لها دلالتها الواضحة ولكنها كلمة عامة، تجريدية، غير محددة بزمان، فالإستعمار كان قديما وحديثا، واتخذ أشكالا وأساليب متعددة، كل هاته الصفات تجرد هاته الكلمة من الكثير من قوتها وحرارتها.

ولهذا، فابن عبد الكريم يفضل أن يستعمل بدلها عبارة «الحزب الإستعماري» التي تشخص ظاهرة دينامية ملموسة تتمثل في وجود طائفة من البشر يدينون بمبدإ التآمر على حرية الشعوب وأراضيهم ومواردهم وينظمون أنفسهم من أجل الوصول إلى هاته الأهداف المتنافية مع الروح الإنسانية. وهي الظاهرة التي واجهها وامتحن بها طوال نضاله التحريري. لقد وجد الحزب الإستعماري في إسبانيا. إنه، بالطبع، لا يقدم نفسه كحزب على الصعيد الرسمي، بل لا يرغب في أن يعرف بأي تنظيم، لأنه مبني على الجاسوسية والدس والمؤامرة، فيفضل أن يعمل في الظلام ويحرك الدمى من وراء ستار. لذلك، فابن عبد الكريم حينما يستعمل في حقه عبارة «الحزب الإستعماري» يفضحه ويكشف عن عورته. وهو، بالفعل، حزب أقوى من عدد من الأحزاب السياسية لأنه مرتبط بمصالح كبيرة، معزز برؤوس أموال ضخمة، له سند

كبير في الجيش الذي يحلم عدد من قادته بتحقيق أمجاد عسكرية جديدة وتعويض هزائم قديمة.

ونجد نفس الحزب في فرنسا، بصورة أكثر تنظيما وأقوى وسائل مالية وعسكرية. حزب تقوم وراءه أحزاب سياسية منظمة لها مكانها الكبير في البرلمان الفرنسي الذي كلما أثيرت قضية الثورة الريفية إلا وصوت لصالح الإستعمار وسياسة الحزب. حزب له زعماءه ونجومه من نوع أوجين اتيان أو ليوطي، وله صحف تأتمر بأمره وتذيع ما يريده، ولو كان محض البهتان، وتسكت عما لا يريده، ولو كان هو الحق الصراح، وله كتابه ومداحوه وأعوانه من المغاربة الذين اشتريت ضمائرهم بالأموال والإغراءات.

إذا كان للإستعمار حزبه، فإن لفكرة التحرير حزبها، ولعل هذا ما أراد أن يبرزه ابن عبد الكريم باستعماله لتلك العبارة والتي نورد عنها مثالا في رسالة وجهها لأحد رجال الزاوية الخمليشية المعروفة بنفوذها الروحي في ربوع الريف والتي كانت لها مشاركات قديمة في جهاد الريفيين. إلا أن الشخص الذي يكاتبه ابن عبد الكريم حدث له ما حدث لعدد من رجال الزوايا الذين مالوا الى مسالمة الإستعمار والتعاون معه، أحيانا، وهذا ما يظهر من نص الرسالة التي نثبتها هنا كشاهد تاريخي.

نص الرسالة

الحمد لله وحده في 8 قعدة سنة 1343 وصلى الله على سيدنا محمد وآله،

حضرة الأجل الأرضى الشريف المحترم سيدي علي خمليش. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد، وصل كتابكم المؤرخ 15 شوال الماضي اتصالا والمتضمن المسائل الآتية: أولا أنكم كتبتم لنا نيابة عن الحزب الإستعماري الفرنسي، وثانيا أنه قد حصل منا تعد مكرر على المنطقة الفرنسوية وقطع الأسلاك البرقية، ودخول جيشنا في منطقة حزب الإستعمار، وفي الأخير، تطلبون انجلاء جيشنا عن مواقعه الحالية إلى الوراء توطئة للمفاهمة التي تكون في وزان إن أردنا ذلك.

وجوابا عن ذلك أقول لكم إننا لم يحصل منا تعد أبدا وإن التعدي حصل من الحزب الإستعماري الفرنسي غير ما مرة، وقد قدمنا الإحتجاجات اللازمة على جميع ذلك في وقته، ولم نر منهم الا الإستهزاء والسخرية والتعامي عن كل ما من شأنه أن يحسن العلائق بين الطرفين. ولم نستغرب ذلك منهم لأننا تعودنا منهم كما تعود جميع الضعفاء مثلنا أن ذلك عادتهم. وقد بلغ منهم التعدي والتعصب أنه كلما صدرت منهم جناية علينا وأخذوا طرفا من بلادنا يقولون إنه لم يصدر منهم ذلك، وإنما بعض حكامهم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم. وتارة يقولون إن البلاد بلادهم فلهم الحق في الزيادة أينما شاؤوا. وفي العام الفارط كان قد قدم ولد المذبوح مع شرذمة من الناس فاحتل مرنيسة وأراد الإقامة هناك بدعوى أنه مرسل من قبل المخزن الشريف ومن الدولة الحامية. واتبع هذا العمل بغصب صنهاجة والجاية ومتيوة وبني زروال بحجة أن تلك القبائل تشبثت بطاعة المخزن وأنهم طالبون لذلك. وقبل هذا وبعده صاروا يقبضون المتسوقين إليهم ويحجزون منهم بعض المواد باسم المواد الممنوعة، مع أننا نعطي فيها الثمن الفاحش. كل هذا ونحن نتحمل الصبر ونغض الطرف ونقدم الإحتجاجات الى رئيسهم في الرباط الذي يقابل ذلك بعدم الجواب. أما اليوم، فقد عيل الصبر وضاق الصدر، وقابلنا العمل بمثله، أعوانهم قد أشهروا علينا الحرب قبل هذا التاريخ بأعوام عديدة، ونحن كنا نتحمل ذلك بمزيد من الأسف. ولكنه قد وصل الوقت الذي نقف في وجوههم وقوف رجل محق. وها نحن قد فعلنا وفعلنا ولا نخشاهم ولا نخاف تهديداتهم، ولا شيئا من الأشياء.

حقا، أردنا أن نقف في وجه الحزب الإستعماري، ونجعل له حدا على بلادنا حتى لا يتسرب إلى ذهنه أننا نخشاه أو نخشى الموت في سبيل الوصول إلى حقوقنا المهضومة. فإن رجعوا إلى رشدهم وأرادوا المخابرة معنا على الأساسات المعقولة ويتخاطب مثل ما يتخاطب به العقلاء، فنحن مستعدون لذلك دائما لأننا لا نرغب في حرب ولا في استعمار مثلهم. وإن هم لا زالوا على مكرهم الإستعماري واستعمال وسائل التضليل والتعمية فالحالة هي ما ترى. وبلغهم من عندنا ومن عند جميع المسلمين الذين في حكومتنا أننا متأهبون لأي الحالتين أراد الحزب الإستعماري، والنصر بيد الله يوتيه من يشاء. أما قولهم إنهم يريدون السلام والهناء مع الريف،

فالزاوية الخمليشية المشار إليها هنا لها ماض في الجهاد يرجع إلى عهد احتلال الجزائر سنة 1830 إذ كانت لها مشاركة في حركة عبد القادر الجزائري، كما شاركت في حرب تطوان ضد الإسبان. وفي مستهل القرن العشرين ظهر منها مجاهد ضد الإسبان هو محمد بن محمد الصديق تشير بعض المصادر إلى أنه كان في مستوى كبار المجاهدين. وكان منها أيضا مجاهدون في الثورة الريفية. لكن هذا لم يمنع الإستعمار الفرنسي من الإستحواذ على بعض شيوخها وزواياها فصار يستعملهم في قضاء أغراضه. وهذا ما جعل ابن عبد الكريم يصارح مخاطبه بأنه يمثل الحزب الإستعماري الفرنسي. ولنشر بالمناسبة الى دور محمد بن عبد الرحمان الدرقاوي الذي حاولت فرنسا أن تستفيد من نفوذه في بني زروال ودفعته الى إثارة القبائل على محمد بن عبد الكريم والقيام بحملة دعائية واسعة النطاق ضده في الأوساط المغربية. وتلك نقطة مهمة مازالت في حاجة إلى المزيد من البحث والتحري، وإنما اكتفينا بالتنبيه إليها.

هذا الحزب الإستعماري بمختلف فئاته من الفرنسيين والمتعاونين المغاربة كانت تحركه في التاريخ المشار إليه في الرسالة دوافع لا بد من الوقوف عندها:

1 ـ الدافع الأول كان يتصل بمصير الوجود الإستعماري في المغرب. فقد كان رجال الإستعمار يشعرون بأن نجاح الثورة الريفية هو بداية النهاية بالنسبة لبقاء المغرب تحت السيطرة الفرنسية. أليس ليوطي هو الذي يصرح:

«ليس هناك ما هو أسوأ على مستقبل نظامنا من قيام دولة مسلمة مستقلة وعصرية في منطقة قريبة جدا من مدينة فاس لأنها ستجعل من عبد الكريم مركز جذب لا للخارجين علينا فحسب بل لكل العناصر المغربية أيضا ولا سيما للشباب منهم لأن أحداث الشرق وسعت من نظرتهم وزادت من حدة استلهامهم مشاعر الكره للأجانب».

بل إن الدول الإستعمارية كلها كانت ترى في نجاح ابن عبد الكريم وحصول الريف على استقلاله خطرا يهدد الإستعمار العالمي، ويكون نذيرا بما سمي فيما بعد «تصفية الإستعمار». وهذا ما ظهر بوضوح حينما أقدمت إسبانيا على إجراء مفاوضات للصلح مع ابن عبد الكريم، على أساس الإعتراف باستقلال الريف. فقد قامت

ضدها فرنسا وأنجلترا وإيطاليا وظهر تضامن فعال بين الدول الإستعمارية من أجل القضاء على ابن عبد الكريم بكل الوسائل.

2 ـ الدافع الثاني يتمثل في الأطماع التي كانت تثيرها الإعتقادات السائدة في الأوساط الإستعمارية بأن الريف غني بالمعادن. ومنذ أواخر القرن التاسع عشر اشتهر المغرب بامتلاك ثروات معدنية مهمة. وحصل بعض الأجانب على امتيازات في الريف بواسطة شريف وزان. واتضح بالفعل أن الريف غني بمعدن الحديد الذي تصدت شركات أجنبية لإستغلاله. بل إننا نرى الأنجليزي المعروف «والتر هاريس» يقدم إلى الريف ويحصل على امتيازات معدنية من ابن عبد الكريم. وهو ما لم تكن تنظر إليه فرنسا بعين الإرتياح.

3 ـ الدافع الثالث هو اطماع الإستعماريين الفرنسيين في الإستحواذ على كل الأراضي الخصبة بتوزيعها على المعمرين الأوربيين، وذلك في نطاق سياسة فرنسا الرامية إلى أن تجعل من المغرب مستعمرة استيطان. وكانت ناحية ورغة في بني زروال وما يحيط بها من القبائل تشكل إحدى المناطق الخصبة بالبلاد وتجتذب إليها، بالتالي، أطماع أولئك الفرنسيين الذين كانوا يأملون أن يحصلوا على الغنى بأيسر سبيل، عن طريق الحصول على أراضي منتجة بأبخس الأثمان. وفي هذا الظرف بالذات نادى الإستعماريون بشعار تتريك كل المغاربة الذين يتعاطفون مع الثورة الريفية.

وفي نفس الوقت، يجب أن لا ننسى أن تلك المنطقة كانت هي التي تضمن القوت للريف الثائر والذي هو معروف بفقره من الناحية الزراعية. فكانت حكومة الريف حريصة على أن تكون منطقة بني زروال في إيالتها، سيما وقد كان نصفها معدودا في منطقة الحماية الإسبانية، حسب الاتفاق المبرم بين إسبانيا وفرنسا في شأن الحدود بين الأيالتين... وهنا خطر لقادة الإستعمار أن يغتنموا الفرصة لتحقيق هدفين:

أ ـ أن يستولوا على حوض ورغة بكامله لصالح المشروعات الإستعمارية الفرنسية.

ب ـ أن يقضوا على الثورة الريفية بخنقها عن طريق حرمانها من الأراضي التي كانت هي المخزن الطبيعي لمواردها الغذائية.

وقد جاءت المحاولة الإسبانية للإتفاق مع ابن عبد الكريم المشار إليها آنفا لتثير مخاوف الفرنسيين وتدفع بهم إلى الضغط على إسبانيا لتتراجع عن مشروعها، من

فإنهم يريدون ذلك بالمعنى الآخر أي أن الريف يطيعهم ويصير لقمة سائغة في فمهم. وبهذه الكيفية أقر لهم أننا كذلك.

هاته الرسالة تكشف لنا، ولو بالإشارة الوجيزة عن تحركات الحزب الإستعماري الفرنسي في وقت كانت تنتقل فيه الثورة الريفية إلى مرحلة خطيرة من تطوراتها. ويكفي أن ننظر إلى تاريخها 8 ذو القعدة 1343هـ لنستحضر ذهنيا الوضع الذي كانت توجد فيه حركة النضال الريفية.

فعلا، لقد كانت في منعطف خطير، الطريق الذي سلكته قبل الوصول إليه كان محفوفا بالانتصارات. فبعد معركة أنوال الحاسمة (17 يوليو 1921)، استطاع ابن عبد الكريم أن يسير قدما في إنجاز خطته في تأسيس حكومة وضم عدد من القبائل التي كانت خاضعة من قبل للإسبان وتوسيع الرقعة الترابية التي كانت تابعة لنفوذه.

وقبل تاريخ هذه الرسالة بسنة اتجه بعمله العسكري والسياسي الى الناحية الواقعة غرب منطقة الريف وهي التي تمتد على أراضي جبالة وغمارة وتحتضن مدن الشاون وتطوان وطنجة. فكان الإستيلاء على واد لاو في 24 ذي القعدة سنة 1342، ثم على مدينة الشاون، ثم القبض على الريسوني الذي بدأ يتعاون مع الإسبان من أجل مناوأة الثورة الريفية، ثم محاصرة تطوان، والتفكير في الإستيلاء على طنجة. ولم تقم قائمة الجيش الإسباني أمام هجمات المجاهدين الريفيين.

وأخذ الدكتاتور بريمودي ريفيرا درسا من هذه الأحداث الخطيرة، فقرر أن يبرم صلحا مع ابن عبد الكريم على أساس يعيد لمنطقة الحماية الاسبانية في المغرب استقلالها. وهذا ما انتهى إليه بالفعل الوفدان الإسباني والمغربي اللذان إجتمعا بمرسى إسلي طوال عشرة أيام.

كان ابن عبد الكريم، اذن، على وشك أن يجني الثمار الأولى لجهوده أي أن يحصل على استقلال المنطقة الشمالية من المغرب لولا أن قامت قائمة الحزب الإستعماري الفرنسي الذي كان يتتبع بتخوف وعداء كبيرين خطوات الثورة الريفية منذ انطلاقتها. وقد تجلى ذلك العداء في رفض كل اتصال جدي ورسمي مع الثورة الريفية وهو ما يشير إليه ابن عبد الكريم حينما يذكرأنه «لم ير منهم ما يحسن العلائق بين الطرفين.» ثم تجلى في عدد من التحرشات والمضايقات التي يطول ذكرها.

على كل، لنتساءل الآن: ما هو الحزب الإستعماري الذي يشير إليه ابن عبد الكريم؟ إنه يتكون من عدة عناصر:

1 ـ العسكريون الذين تربوا في الحروب الإستعمارية منذ قرن وتدربوا على مزاولة مهامهم في افريقيا الشمالية، وتكونت لديهم أساليب وعادات مدروسة في التعامل مع السكان. وكانوا ينقسمون في تلك الآونة إلى مدرستين: مدرسة المراوغة والتحايل ويمثلها ليوطي. ومدرسة الشدة والتنكيل ويمثلها المريشال بيتان. لكن كلتا المدرستين، كما هو واضح، تخدمان بإخلاص القضية الإستعمارية.

2 ـ علية الموظفين المدنيين بحكومة الحماية والمصالح الإستعمارية بصفة عامة، من رؤساء الإدارات العمومية والمراقبين المدنيين، الذين تلقوا تكوينهم في معاهد الإستعمار وتكونت لديهم عقلية استعمارية عند ممارسة مهامهم واحتكاكهم بمصالح الإستعمار واستفادتهم منها. ولا نحتاج إلى ذكر الأسماء لكثرتها.

3 ـ المعمرون ورجال الأعمال الذين كانوا يستفيدون من استغلال المغرب ويطمحون إلى المزيد من استغلاله. فكانت منهم عصبة قوية بالجزائر يتزعمها رجال مثل «جاستون تومبسون» و«أوجين إتيان»، وكانت لهم عصبتهم بالمغرب التي كان يمثلها «ليون باريتي».

هناك، بالطبع، عدد من كبار السياسيين الفرنسيين الذين كانوا يتزعمون الحزب الإستعماري من أعلى ويرددون مطالبه وشعاراته في البرلمان والصحافة.

ويجب أن نضيف إلى هاته الفئات التي يتكون منها الحزب الإستعماري عددا من الأعوان المغاربة الذين ساروا في ركاب المستعمرين، وقبلوا أن يطعنوا الثورة الوطنية الريفية من الخلف. ويشير ابن عبد الكريم في رسالته هنا إلى دور أحد رجال الزوايا. والمؤرخ حينما يتناول هذا الموضوع بالفحص يجد نفسه أمام قضية شائكة مليئة بالمتناقضات، تحتاج إلى بحث طويل... فهو لا يستطيع أن يؤكد أن الزوايا انحاشت كلها إلى جانب الإستعمار لأن فيها من كان لها موقف وطني وشاركت في الجهاد.

لكنه مع ذلك مضطر أن يسجل بأن الإستعمار أطلق أحابيله على الزوايا ليستغل نفوذها ومارس عليها ضغوطا وإغراءات أدت بالعدد منها إلى الإستسلام لإرادته.

جهة، ولينساقوا فورا نحو إشهار الحرب على ابن عبد الكريم، من جهة أخرى، وكانوا في حاجة إلى ذريعة يبررون بها تحولهم إلى موقف عدائي. فاختلقوا قضية النزاع على أراضي ورغة التي كان ابن عبد الكريم يسيطر على جزء كبير منها منذ انتصاراته الأولى. وادعوا أن وجوده في حوض النهر اعتداء على أراض داخلة في سلطة الحماية الفرنسية.

والحقيقة أنهم أصبحوا يشعرون أن الثورة الريفية باتت تشكل خطرا كبيرا عليهم، نظرا لانتصاراتها. ولذلك فقد لجأوا إلى هاته الحيلة وأطلقوا أبواق دعايتهم في الداخل والخارج يتهمون ابن عبد الكريم بكل التهم. وبعد ذلك وجهوا قوات جبارة من فرنسا والمستعمرات إلى الواجهة لسحق الثورة الريفية هذا الفصل من ملحمة الثورة الريفية يكشف لنا بالتفاصيل الدقيقة أساليب الحزب الإستعماري المبنية على التزوير والبهتان، والنفاق. فباسم الحضارة والديموقراطية والإنسانية والحرية، كما يتجلى ذلك من جلسات البرلمان الفرنسي حول الثورة الريفية، أقدمت البورجوازية الإستعمارية على سحق شعب صغير لا ذنب له إلا التشبث بحريته وكرامته وحرصه على أن يسير في طريق التقدم والديمقراطية.

ولهذا، فقد رفض البطل الريفي محمد بن عبد الكريم أي تعامل مع الحزب الإستعماري إلا على أساس الإستقلال وظل يحارب إلى آخر رصاصة. وحينما اضطر إلى الإستسلام، فقد استسلم كجندي مرتاح الضمير لأنه أحسن القيام بواجبه وما فرط في شيء ولم يقف موقف التخاذل والمذلة. إنه يواجه خصمه بدون ضعف ولا انكسار. ويفضل أن يعيش في النفي ككثير من أحرار الرجال على أن يمد يد المتنكر لمبادئه.

خطاب ثوري إلى المسلمين

«إخواننا المسلمين: ندعوكم باسم الرابطة الدينية أن تهبوا جميعا إلى فك رقابكم من عدوكم، الذي يريد أن يستعبدكم بالكيد والعدوان. انه والله لخزي عظيم أن يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه وأن يحتمي بحماه، فإن كان هذا طمعاً في رضاه فالله عز وجل يقول: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»، وان كان خوفا من سطوته فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مومنين، وانكم تعلمون أن الفوز والنصر للحق وهو في جانب المسلم الذي يحامي عن دينه ووطنه وأن كلمة الله هي العليا وحزب الله هو الغالب لا محالة، طال الزمن أم قصر. فقوموا قومة رجل واحد، واعقدوا الخناصر على مناجزة العدو، فقد أصبح على شفا الهلاك، وعما قليل ينخذل الخذلان الأخير، ويسقط السقوط الأبدي الذي لا نهوض منه وينسحب مطرودا من هذه الأرض الشريفة التي ما بقى له فيها مقيل ولا مقر ولولا اعتماده على بعض إخواننا الذين باعوا شرفهم ودينهم بثمن بخس دراهم معدودة، لأصبح من زمان هشيما تذروه الرياح على هذه الجبال والبطاح، لكنهم وقفوا عقبة في وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية إليه. وأيما مقت أكبر من أن يقف المسلم بجانب عدوه وعدو دينه يحارب أخاه المسلم. لعمرو الحق أن هذا لهو الشقاء العظيم والعار الشنيع. ومع ذلك فإننا نود لهم الخير ونرجو أن يراجعوا بصيرتهم ويفهموا واجبهم الديني والوطني، فيؤثروا ما يبقى على ما يفنى، ويستبدلوا رضى الله بسخطه، ورحمته بغضبه، من قبل أن يفوت الفوت ويعضوا أصابع الندم، ولات حين مندم.

إخواننا المسلمين: إن كنتم تريدون الخلاص والنجاة حقا وأنتم أولئك المؤمنون الصادقون المصدقون بوعد الله، فتحركوا وانتبهوا من نومكم الطويل وكونوا أنصار الله، مجاهدين في سبيله بكل قوة، وقوة الإيمان ما فوقها قوة. واغتنموا هذه الفرصة فقد زفت ساعة النصر، وجاء الفرج يبشر كل مؤمن جاهد ابتغاء مرضاة الله بالسعادة في الدنيا والآخرة ولا تكونوا من الذين خسروا أنفسهم وسودوا تاريخهم بالخضوع للعدو، من أجل الحصول على راحة موهومة، والتمتع بعرض زائل. فسحقا به من حياة ينزل فيها المؤمن من سماء عزه وشرفه الى درك الذل والعبودية لخصوم لؤماء لا يرعون فيه ذمة، ولا يرون لمسلم حقا، ولا يقيمون له وزنا. أما كفانا موعظة واعتبارا ما وقع لاخواننا بالأندلس وما آل إليه أمرهم من العز الى الذل ومن الإيمان الى الكفر؟! ففي مثل هذه الحالة يستعذب المؤمن الموت ويفضل العدم على البقاء، هكذا عهدنا أسلافنا وعرفنا من تاريخهم المجيد أنهم لا يرضون الخضوع والمسكنة، ولا يبتغون من الحياة إلا أن يعيشوا أحرارا ويموتوا أبرارا. ولذلك فإن إخوانكم في الريف عن بكرة أبيهم يقاتلون عدوهم اللدود والذي كان يطمع في بلادهم قبل اليوم، وأما الآن فقد ذاق وبال أمره، ورآى عاقبة خسره، مع أنهم لا يبلغون عشر معشار قوته، وما النصر الا من عند الله. فكيف يليق بمن يروم العزة والفوز أن يتقاعد عن الجهاد ولا يسارع الى نصرة اخوته وانقاذ وطنه من أيدي الطامعين العابثين الذين يسعون في فساد الأرض ولا يصلحون؟! ما ذلك الا من ضعف الإيمان وموت الهمم والرضى بالهوان، والواجب على العلماء والوعاظ والخطباء الذين هم قادة الأمة وهداتها أن ينصحوا العامة، ويرشدوهم الى ما فيه صلاحهم وفلاحهم ويبينوا لهم أن الواجب عيني يطلب من كل فرد القيام به ولا يغني فيه زيد عن عمرو والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل».

توضيحات وتعليقات

هذا نص تلقيته من طالب شارك والده مشاركة فعالة في الثورة الريفية، وكان فيها من رجال القيادة والرأي. وما هذا إلا مثال من أمثلة عديدة عن عدد من النصوص والشهادات المتعلقة بالثورة الريفية والتي ما زالت ضائعة في زوايا النسيان

أو التي ما زال أصحابها يضنون بها، مفضلين الاستئثار بها على إذاعتها بين الجمهور، وهل نحن في حاجة الى القول بأن الواجب الوطني والعلمي يقتضي منا جمع هذا التراث ونشره؟ فهو يخدم الحقيقة، من جهة، وهو يقدم صفحة مشرقة ومشرفة من تاريخ الكفاح الطويل والمرير الذي خاضه الشعب المغربي لاسترجاع حريته وكرامته من جهة أخرى. ونقترح، مرة أخرى، أن تتكون لجنة وطنية لجمع هذا التراث، سواء عن طريق التقاط الروايات الشفوية لشهود العيان الذين أخذ عددهم يقل يوما عن يوم، بعد مرور الزمان.

وليست لدي، بكل أسف، معلومات موثقة عن التاريخ الذي وجه فيه ذلك الخطاب، ولكن من المؤكد أنه جاء بعد معركة أنوال الحاسمة كما تدل على ذلك الجملة التي يقول فيها: «واعقدوا الخناصر على مناجزة العدو، فقد أصبح على شفا الهلاك، وعما قليل ينخذل الخذلان الأخير» فالزعيم الريفي يتحدث هنا بلغة المنتصر الواثق من نفسه الراكن الى خطته الحربية، وعلى أي لا يمكن أن يصدر الا بعد انتصار باهر.

ولكن المهم في هذا الخطاب يكمن في أشياء أخرى نستعرضها بشيء من الإختصار:

1 ـ من هو المخاطب؟ الظاهر من النص أنه موجه الى «إخواننا المسلمين». وبهذا المعنى، فهو لا يقتصر على المغاربة دون سواهم، بل هو موجه إلى عامة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا يتجانس مع التكوين الذي تلقاه ابن عبد الكريم في القرويين وعززه بالقراءة والمطالعات التي أمكنه أن يقوم بها فيما بعد. فهو قاض، وعالم مسلم، يؤمن بالسلفية، أي بأفكار الأفغاني وعبده والكواكبي، ويرى أن المسلمين يكونون أمة واحدة، وأن مقاومتهم للأمبريالية العالمية والاستعمار الأوروبي لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا بتوحيد الصف داخل هذه الأمة، والتحلي بصفات الجد والعمل حتى لا يبقى المسلمون مكتوفي الأيدي أمام الدسائس والمؤامرات الخطيرة التي تحاك لهم في الجهر والخفاء. فالإيديولوجية التي كان ينطلق منها كانت هي السلفية. ومن المعلوم أنها كانت آنذاك إيديولوجية طلائعية لأنها كانت تؤمن بالتجديد والتغيير والاستفادة من الحضارة العصرية، على أساس الرجوع الى المبادىء

الاسلامية الأولى والتحرر من مظاهر الشعوذة والفكر الخرافي. ولدينا دلائل كثيرة على سلفية محمد بن عبد الكريم وروحه العصرية وإيمانه بالتجديد.

2 ـ ثم إنه كان يخاطب المسلمين، لأن الشعوب الإسلامية آنذاك كانت تخوض معارك ضارية من أجل التحرر من الإستعمار. فهنالك نضالات في الجزائر وتونس، وهنالك كفاح مسلح في ليبيا ضد التوغل الإيطالي. وفي مصر، دخلت المعركة الوطنية ضد الأنجليز مرحلة جديدة إثر الثورة التي قام بها الشعب المصري في سنة 1919. وفي الشرق العربي تحركت كل الشعوب العربية بعدما اكتشفت ألاعيب الإستعمار الغربي. فكانت ثورات بسوريا، وأخرى بالعراق، أما فلسطين الشهيدة فقد دخلت منذ ذلك الحين في مسيرتها النضالية الطويلة. وفي الهند تحركات ونضالات ضد الأنجليز، وفي أندونيسيا كفاح الوطنيين ضد الاستعمار الهولندي. وفي أفغانستان وإيران تطورات داخلية وخارجية ناشئة عن الضغوط والمؤامرات الأمبريالية. أما تركيا، فقد واجهت تكالب الدول الإستعمارية الغربية التي قررت أن تقطعها إربا إربا، وتمحو دولتها من الوجود، فاستطاعت بعزيمتها وصمودها أن تفشل هذا المخطط الجهنمي، فتنتصر على المغيرين وتطردهم من أراضيها.

كان المسلمون، إذن في حالة استنفار وتجند، فكانوا بذلك يمثلون طاقة عظيمة لو وجدت من ينظمها وينسق بين أجزائها ويوجهها في طريق الكفاح الهادف، تبعا لخطة مدروسة واستراتيجية موثقة، لما استطاع الاستعمار أن يجابهها طويلا ولاضطر إلى الإنسحاب من ساحتها. ولكن جهود الشعوب الاسلامية كانت آنذاك مبعثرة، يشوبها قلة التنظيم، وانطواء كل فئة على نفسها دون التفكير في الإستفادة الفعلية من تضامن الشعوب الإسلامية الأخرى. ولعل هذا هو الذي قصد إليه محمد بن عبد الكريم الخطابي، حينما وجه نداءه الى «إخواننا المسلمين».

3 ـ وهكذا نستطيع أن نقول أن الإيديولوجية التي كان يرتكز عليها محمد بن عبد الكريم الخطابي، سواء في التوجيه الداخلي، أو الخارجي أو في الخطة العسكرية، كانت هي السلفية ولا أدل على ذلك من كونه ينطلق في هذا الخطاب من فكرة الجهاد مخاطبا المسلمين بقوله: «وكونوا أنصار الله مجاهدين في سبيله بكل قوة، وقوة الإيمان ما فوقها قوة.» هذا هو الأساس الذي انطلق منه محمد بن عبد الكريم، ولكنه استطاع أن يبتكر منه خطة جديدة مناسبة للعصر ذات فعالية في مواجهة خصوم

مسلحين بأسلحة حديثة، أي حرب العصابات أو ما دعى بمصطلح أحدث «حرب التحرير الشعبية» التي أخذ بها فيما بعد «هوشي منه» و «ماو تسي تونغ» و «تشي جيفارا» معتبرين الزعيم الريفي أستاذا لهم.

فهي إيديولوجية ترتكز على إسلام متفتح متبصر، سلفي بكل معنى الكلمة، متجه إلى المستقبل لا علاقة بينه وبين ما يمكن أن نسميه الفاشستية الدينية التي تتخذ من الدين وسيلة للتجميد والتجهيل وقمع الأفكار، والتنكر لحقوق الإنسان.

4 ـ من وراء هذا الإتجاه الى المسلمين، بصفة عامة، نشعر بأن ابن عبد الكريم يتجه إلى أبناء وطنه المغرب الأقصى، بصورة خاصة. وهذا أمر طبيعي لأنه كان، من الوجهة العسكرية البحتة، أحوج بكثير الى مساندة المغاربة المجاورين لمنطقة معركته منه الى مساندة أقطار بعيدة عنه، فنحن نجده، مثلا، يتصل بقبائل جبالة وناحية فاس ووجدة وتازة وتطوان وغيرها للحصول على دعمها الحربي وإدخالها في زمرة أنصاره كما حاول الإتصال بعدد من رؤساء المغرب وقواده الكبار في كل ناحية ليجعل منهم رجال ثورة وجهاد. فاستقلال الريف بالنسبة إليه إنما كان مرحلة لتحقيق استقلال المغرب بأكمله. فهو يعرف أنه كان أسهل عليه بكثير أن يحصل على استقلال المغرب برمته، وذلك سواء باعتبار الرأي العام الدولي أو موقف دول استعمارية متعنة كفرنسا أو إسبانيا، ولم يكن تفكيره في هاته النقطة يخلو من حصافة سياسية، إذ أننا نجد الدولتين المذكورتين تفكران، تحت ضغط النضال الريفي، في إعطاء نوع من الإستقلال الذاتي إلى «قبائل الريف وجبالة»، وتبرمان في هذا الصدد بتاريخ 11 يوليو 1925 اتفاقا واضحا في هذا الشأن.

وعلى أي، ففي الخطاب إشارات دقيقة وملموسة تبين بأن ابن عبد الكريم كان يتجه للمغاربة، قبل غيرهم، ويعتمد على استجابتهم لندائه بالدرجة الأولى، فهو يذكر، مثلا، اعتماد العدو «على بعض إخواننا الذين باعوا شرفهم ودينهم بثمن بخس»، مشيرا بذلك إلى خيانة بعض الأعيان والرؤساء ورجال الزوايا الذين أغرتهم سياسة ليوطي فأنساقوا في ركاب الدولة الحامية. ومثل ذلك يمكن أن يقال عما كان يجري بمنطقة الحماية الإسبانية، ثم يوضح، بما لايبقى معه أي شك والتباس، حينما يصف الدور السلبي لأولئك الخونة قائلا: لكنهم وقفوا عقبة في وجهنا وحاجزا يمنع وصول ضربتنا القاضية إليه».. وهو، حين يضرب المثل بالأندلس، يعرف أن مأساتها

لها صدى عميق في نفوس المغاربة، كما أن إشارته إلى العلماء والوعاظ والخطباء» كانت تعني المغاربة بالذات، نظرا لتأثيرهم البالغ في العامة. لقد كان يريد أن يجعل منهم دعاة وأنصارا لقضيته عن طريق تذكيرهم بواجبهم كعلماء مسلمين.

وهكذا، يبرهن هذا الخطاب، كما ترى عن مهارة سياسية فائقة، إذ يضرب عصافير متعددة بحجر واحد. ففيه نداء إلى المسلمين، بصفة عامة، كما يتضمن دعوة خاصة للمغاربة كلهم ليزيدوا من مشاركتهم في الثورة الريفية. كما يحافظ، في نفس الوقت، على التكتيك الذي كان يتبعه ابن عبد الكريم من عدم التصريح بكل أهداف الثورة ومقاصدها. ولا ننسى أن ننوه بالمزايا الأدبية لهذا الخطاب الذي يمثل البيان العربي الأصيل وفي نفس الوقت يعبر عن أفكار ومطالب ترجع لعصرنا، دون أن يحتاج الى تعذيب اللغة وتشويهها وإلباسها لباسا لا يليق بقدها وشكلها. مما يدل على أن العربية اذا وجدت من يعرفها حق المعرفة قادرة على التعبير عن كل ما يخالج نفوس أبناء القرن العشرين بوسائلها الذاتية. وعلى أي، فنحن اذا كتبنا تاريخ الأدب المغربي في القرن العشرين، لابد، من أن نذكر فيه محمد بن عبد الكريم. فقبل أن يحمل السيف، أمسك القلم وعمل كصحافي، فكتب عدة مقالات، وحينما أصبح قائدا لثورة تحول الى زعيم سياسي، وخطيب ذي تأثير فائق على الجماهير. ولكنه، كما رأينا خطيب لا يطلق الكلام على عواهنه، ولا يتشدق بالكلام لسماع رنينه، بل خطيب يظل دائما مع الواقع لأنه يريد أن يغير الواقع.

وثيقة لمحمد بن عبد الكريم

نداء الى الامة الجزائرية والتونسية

لعل من ينكب على تاريخ المغرب منذ بداية هذا القرن يشعر بأن هذا البلد لم يتوقف عن الكفاح ومواجهة الصعاب والأزمات، غير ناكص على عقبيه، ولا جانح الى السلامة، بل مفضلا أن يركب طريق المخاطرة وأن يرفض بإباء ما تحاول الأقدار المعاكسة أن تمليه عليه.

هاته الأنفة تعبر عن طبيعة شعب طموح جموح لا تستهويه المغريات الواطئة، ولا يقنع بالمكاسب الرخيصة، بل كان دائما يضع الشرف والكرامة فوق كل اعتبار، ويفضل أن يجوع ويعرى على أن تداس حرمته وتجهل حقوقه. ونحن اليوم في أحد المنعطفات الكبرى التي عشناها في نضالنا الوطني، فقد أبت الأقدار الا أن تخبئ لنا بقايا وشظايا من النضالات المتواصلة من أجل استكمال استقلالنا ووحدة ترابنا، فبالأمس كانت طرفاية وإيفني، واليوم الصحراء الغربية، وغدا الصحراء الشرقية وسبتة ومليلية والجزر الجعفرية. . .

فهل سنستطيع أن نصمد أمام العقبات والصعاب المتواصلة؟ هل نستطيع أن نثبت في موقفنا الوطني في الوقت الذي نكافح من أجل تحقيق الديموقراطية الحقة وتحرير المواطن؟ ولم لا؟ إن كل الشعوب الجديرة بهذا الإسم استطاعت أن تكافح في هاتين الواجهتين التي ما هي في عمق الحقيقة الا واجهة واحدة، فكيف نضمن حقوقنا الخارجية، اذا لم نكن أقوياء في الداخل بتحرير المواطن والتراضي والتكاثف، وكلها مكاسب لا تنشأ الا عن ديموقراطية صحيحة؟ وكيف نضمن حقوقنا الداخلية،

اذا لم نكن شاعرين بأن لنا حرمة وكيانا صحيحا تقدرهما كل الشعوب وتعترف بهما، على أساس الحق المشروع الذي لا يمكن أن يوصم بوصمة الإعتداء والإغتصاب؟

إننا، ونحن نلقي هاته الأسئلة على أنفسنا، لا نتمالك عن الرجوع بالذاكرة الى أمثلة تاريخية ما زالت حية في النفوس والأذهان لأنها قريبة منا، فالمناسبة والشهر والتاريخ يذكرنا أن الإنتصار الكبير الذي أحرزه المغرب في معركة أنوال قد مرت عليه سبع وخمسون سنة. وهذا الإنتصار يحمل أكثر من معنى في تاريخ الحركة الوطنية.

1 ـ انه يحمل تعويضا نفسيا بالنسبة للشعب المغربي الذي رآى كل قواه تنهار أمام الهجوم الإستعماري. فلا الجيش المغربي النظامي استطاع أن يقف في وجه الزحف الأجنبي بصورة منتظمة ومضبوطة، ولا أهل الحل والعقد، ولا العلماء ولا الأعيان استطاعوا في تلك الظروف العصيبة أن يتقدموا برأي سديد، أو يبتكروا حيلة أو يجدوا وسيلة لتلافي المأساة. بل وقع غياب فعلي من كل الأعمدة الرئيسية التي يرتكز عليها المجتمع المغربي. وطبيعي أن يكون لذلك انعكاساته السلبية على الشعب الذي سيشعر بنوع من اليتم والحرمان واليأس. ولذلك فإن انتصار أنوال، الذي أتى من جهة لم تكن في الحسبان، أحدث تلك المفاجأة النفسية المنعشة، فأعاد الثقة لضمير الشعب ورفع معنويته وهيأه داخليا لكل المعارك الوطنية المقبلة...

2 ـ إنه، في نفس الوقت، يشكل محاولة طموحا وتحديا يثير التعجب والإعجاب، لأنه هاجم الأمبريالية الغربية في كبريائها وجدع أنفها، في الوقت الذي كانت مقتنعة بأنها تتحكم في مصائر العالم تأمر فتطاع، وتنهي فتتوقف كل حركة، وبذلك أعاد محمد بن عبد الكريم الأمل الى نفوس كل الشعوب المضطهدة والرازحة تحت نير الإستعمار وضرب المثل لعدة زعماء جاءوا بعده مثل هوشي مين وماوتسي تونغ الخ..

فالثورة الريفية، وان انحصرت في ناحية محدودة من المغرب الأقصى، أمكنها أن تهز العالم من أقصاه إلى أقصاه وأن تثير عطف كثير من شعوب العالم، وأن تقدم عن الشعب المغربي وجها مشرقا ومحترما لأنها أبرزته في ثوب الشعب الجاد في مواقفه الساعي لتحرير نفسه المستعد لكل التضحيات، المتشبع بفكرته، القوي بإيمانه، ومن

عادة كل الشعوب أن يحترموا الشعب الذي يحترم نفسه ويظهر بالقول والفعل تشبثه بالمبادئ السامية والقضايا العادلة والمواقف الشريفة.

ولقد استطاعت الثورة الريفية أن تعمل، بالفعل، في الواجهتين:

ـ في واجهة الإصلاح الداخلي، حيث تمكن محمد بن عبد الكريم أن يضع حدا للنظام القبلي المبني على الصراعات الداخلية المستمرة وأخذ الثأر وإقامة الحلف واللف بين القبائل ضدا على قبائل أخرى، وأن يفرض بدل ذلك قانونا يحترمه الجميع، وأن يؤسس حكومة تشرف على سائر الشؤون، على النمط العصري، وأن يعزز هذا النظام بمجلس تمثيلي يستدعى للبث في كل الشؤون المهمة، سواء تعلقت بالشؤون العسكرية أو المدنية، وَوُفِقَ، برغم ظروف الحرب، الى تحقيق عدة منجزات من شأنها أن تخطو بالبلاد في سبيل التقدم.

ـ في الواجهة الخارجية، حيث أمكن للثورة الريفية أن تواجه الحرب ضد الإستعمار بروح الجد والمسؤولية، ظاهرة بمظهر الدولة المنظمة الحازمة التي لا تعرف الكلل والفتور في العمل على تحقيق أهدافها.

والجمع بين هاتين الصفتين، صفة الحركة الساعية للتقدم والديموقراطية، والقائمة، بنفس الوقت في واجهة الحرب ضد الإستعمار هو الذي أغرى كل الحركات اليسارية الأوروبية وكل الأحزاب الوطنية والمنظمات التحررية في العالم بالثورة الريفية، ويكفي أن نشير الى الجلسات الطويلة والمتكررة التي عقدها البرلمان الفرنسي وما ثار فيها من نقاش حاد بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار، ويكفي أن نذكر، بالمقابل، كيف أن هتلر، زعيم النازية، وضع الثورة الريفية في قائمة الحركات التي كانت تهدد الجنس الآري في سيطرته على العالم.

والنداء الذي ننشره اليوم في جريدة المحرر وثيقة جد مهمة لم يسبق نشرها، وتكمن أهميته في كونه نداءاً موجها الى «الأمة الجزائرية والتونسية» أي الى القسم الأكبر من شعوب المغرب العربي، حتى تتضامن مع الثورة الريفية وهي تجابه الإستعمارين الفرنسي والإسباني. وقد بلغ هذا النداء الى المعنيين بالأمر في إبانه، حيث ان الوثيقة التي نقدم اليوم ما هي الا نسخة من العديد من النسخ التي وزعت في القطرين الشقيقين، وقد عثر عليها أحد الأصدقاء المغاربة بتونس عند مغربي آخر مستوطن منذ زمن بعيد بتلك البلاد، فتفضل وأمدني بنسخة مصورة منها، الشيء

الذي لا يسعني الا أن أشكره عليه جزيل الشكر. وأنبه بهاته المناسبة الى أن هنالك العديد من الوثائق المهمة من هذا النوع التي هي منسية عند عدد من المغاربة والتي تستحق أن تنشر لأنها تزيدنا معرفة بتاريخنا، وتلقى أضواء جديدة على العلاقات بين ماضينا وحاضرنا.

لن أتناول هذا النص بالتحليل لأن هذا أمر يطول ويحتاج الى دراسة علمية تنشر في مجلة متخصصة، وإنما أكتفي هنا ببعض الملاحظات المقتضبة، التي تهم القارئ المعاصر بالدرجة الأولى.

والذي يلفت النظر عند قراءة هذا النص بتمعن هو العلاقة الوثيقة بين مذهب الحركة الوطنية في مرحلتها التالية بعد الثلاثينات وعدد من الأفكار والتصورات التي يعبر عنها ابن عبد الكريم في هذا النص، وقد كانت بعض الدراسات المتداولة عندنا عن تاريخ الحركة الوطنية توحي بأن المفاهيم والأفكار الوطنية السياسية انما ظهرت في المجتمع المغربي بعد سنة 1930، مما يستنتج منه أن الحركة الوطنية ذات القالب السياسي انما ظهرت حوالى 1930 مع صدور الظهير البربري.

وقد تجاهلت تلك الدراسات أن محمد بن عبد الكريم كان سياسيا بقدر ما كان رجل حرب، وأن الثورة الريفية لم تقتصر على المجابهات العسكرية وحرب العصابات بل كان لها مذهب سياسي وحياة سياسية، بحيث أنها أول من روج عددا من الأفكار والمفاهيم والكلمات السياسية التي ستتلقفها عنها فيما بعد الحركة الوطنية بعد الثلاثينات، وهذا يظهر بوضوح من لغة النص الذي بين أيدينا الآن. ولنورد أمثلة على ذلك. فهو يستعمل عبارة «النضال في سبيل الحرية» و«ضم شتات الأمة» و«استعادة استقلال البلاد» ويتحدث عن «عزم الأمة» و«انقاذ البلاد والاعتراف باستقلالنا» ويستعمل كلمات «الإتحاد والإنضمام» و«العصبة» و«الإنقسام» و«التفرقة» و«المعاضدة» و«الاسعاف المادي والمعنوي» و«العمال والزراع» و«الإنقلاب والثورة» و«الدولة الرأسمالية» و«نير الإستعمار» الخ . . . فالنص بأسلوبه وكلماته يقدم لنا نموذجا بليغا للغة التي سيستعملها الوطنيون بعد ذلك ببضع سنوات.

ولننظر الآن الى بعض الأفكار، أن محمد بن عبد الكريم يتحدث في هذا النص كمسلم سلفي، أي كمسلم متفتح على العصر وحضارته بعيد عن الرجعية

والتزمت. وهو نفس الموقف الذي ستتبناه الحركة الوطنية فيما بعد، ويتحدث عن التضامن مع الشعوب الإسلامية وعن وفود المساندة التي جاءته من أقطار إسلامية متعددة، وهو اتجاه ستسير عليه الحركة الوطنية فيما بعد وتجعل منه ركنا من أركان تفكيرها ونشاطها، كما أن التحليل الذي يقدمه عن الإستعمار الأوروبي هو نفس التحليل الذي ستأخذ به الحركة الوطنية فيما بعد.

بل ان بطل الريف سيكون أقوى ألمعية وتنبؤاً بالمستقبل البعيد وأشد وعيا بعدد من الحقائق من رجال الحركة الوطنية، فهو يدرك، مثلا، ثقل الطبقة العاملة المتكونة من العمال والزراع ودورها في العالم المعاصر اتجاه الطغيان الرأسمالي ويضرب مثلا، على ذلك بموقف طائفة من الجنود الفرنسيين، واذا كان كلامه موجزا في هذا الموضوع، فإنه يبين مع ذلك أنه كان واعيا بخطورة الحركة الإشتراكية الصاعدة في العالم ومتعاطفا معها، كما أنه كان مدركا للدور الخطير الذي ستلعبه الصين في العالم شاعرا بأنها ستكون قوة صاعدة وصامدة في وجه الأمبريالية، متمنيا أن تقوم بلاده بنفس الدور في أقصى الغرب، على ضفاف المحيط الأطلسي. وكل هذه افكار تنوسيت في المغرب فيما بين 1930 و1956 ولم تظهر فيه من جديد الا في عهدنا منذ الإستقلال. فإذا أضفنا اليها أفكارا أخرى لم ترد في هذا النص مثل إيمانه بالديموقراطية واعتماده على مجلس تمثيلي في أخذ كل القرارات المهمة ورفضه الاستئثار بالرأي، يتبين لنا قرب تفكيره من التفكير السائد عندنا اليوم في الأوساط الواعية لدى المثقفين والجماهير الكادحة.

لكن أهم شيء يستلفت نظرنا في هذا النص هو إيمان صاحبه بوحدة المغرب الكبير، تلك الوحدة التي لم تصادف الا العراقيل والمقاومة والدسائس منذ بداية الهجوم الإستعماري على افريقيا الشمالية في القرن السادس عشر، ووضعية التقسيم التي تعيش عليها المنطقة، اليوم، انما هي تكريس لما أراد الإستعمار القديم، ويحرص عليه، اليوم، الإستعمار الجديد. لكن الذي يؤسف له هو أن يوجد مثقفون يشكون أو يشككون في حقيقة الوحدة المغربية، استنادا الى ظواهر سلبية مرحلية، في حين ان التشتيت الحالي انما هو مظهر ضعف وعنوان استلاب وقلة وعي.

وعلى أي، فالذي نسجله بكل ارتياح هو أن ابن عبد الكريم كان مدركا لأهمية المغرب الكبير لا كأمنية عاطفية أو خيال جميل، بل كضرورة سياسية في سبيل

التحرر والتقدم، ومواجهة المستقبل بكل مشاكله واحتمالاته. فها نحن، اليوم، أمام السوق الأوروبية المشتركة وأمام مخططات الدول الكبرى ودسائس الإستعمار الجديد، متشتتين، متخاذلين، تائهين في الهوامش والحسابات الفارغة. أفلم يكن من الأفضل أن تتكون من أقطار افريقيا الشمالية «عصبة واحدة» كما يقول ابن عبد الكريم، متجسمة في دولة ضخمة، قوية بمواردها وعدد سكانها وثقلها الجغرافي؟

وأخيرا وليس بآخر، نسجل بارتياح ذلك الإتصال الأول الذي وقع بين إخواننا الفلسطينيين والثورة الريفية، وتلك نقطة تاريخية يجب أن لا تغيب عن بال الملاحظين لأنها تبين أن الريف كان منذ ما يقرب من ستين سنة محط آمال كل الشعوب المناضلة ضد الإستعمار، كما تدل على ذلك قائمة الوفود الواردة على ابن عبد الكريم من كل الجهات، وبخاصة من العالم العربي ومن ضمنها وفد فلسطين المجاهدة، لقد كانت أجدير، في تلك الآونة، مقصدا للشعوب المستضعفة، لشعوب العالم الثالث.

وهذا دور نتمنى أن يقوم به المغرب، اليوم، ويحافظ عليه، لأنه مشرف، ولأن فيه خير ضمان لحقوقنا ومصالحنا.

نص الوثيقة التاريخية

أجدير في 10 أوط سنة 1925 الموافق 26 محرم الحرام عام 1344.

من الأمير بن عبد الكريم إلى الأمة الجزائرية والتونسية، أحييك أيتها الأمة النبيلة باسم الشعب الريفي الذي قام يناضل في سبيل حريته ويجاهد وراء إعلاء كلمة الله ونصرة المسلمين.

إن الشعب الريفي في جهاده المقدس قد عان ماعاناه من آلام الحروب ومصائبها بدون أن تثبط همته أو تخر قواه حتى أيده الله بنصر من عنده ودحر دولة الإسبان الباغية وطردها من البلاد مسبولة بأذيال الذل والإنكسار وما كادت جيوشنا المظفرة تسحق هذه الدولة اللئيمة ويتسنى لشعبنا الأخذ بالمعيشة في الهدوء والسلام والإنكباب على الاشتغال بأشغاله وزراعة أراضيه حتى قامت دولة الفرنسيس الجائرة وأغارت علينا الحرب طمعا في اكتساح بلادنا ونجدة لجارتها المخذولة بدافع العصبية الملية وعملا بتقاليد السياسة الأوروبية القائلة بوجوب تألب الدول الأفرنجية على الأمم الإسلامية.

فدولتا فرانسا وإسبانيا قد اتفقتا على أمرنا اليوم مثل ما اتفقت دولة الأنكليز والطليان والفرنسيس واليونان على إخواننا الأتراك واحتلوا الاستانة وأزمير وكوتاهية وبورسة ومقاطعات أضاليا وكيليكيا وغاليبولي وغيرهن وأرادوا أن يقضوا على دولتهم الإسلامية قضاء مبرما ولكن أبى الله الا أن يهبط آمالهم وينزل بهم الخسف والدمار

فظهر البطل التركي المقدام مصطفى كمال وضم شتات الأمة وأخذ قيادتها بيده وحمل على الأعداء حملته فكسر شوكتهم شر كسرة مستعيدا استقلال البلاد ومستردا للأمة حريتها المقدسة.

فلتعلما أنهما إن لم ترجعا عن غيهما وتخليا موطننا فسوف لن نرتد عن قتالهما حتى نذيقهما من بطشنا ونكالنا ما لم يكن لهما في الحسبان فكما قد سحقنا دولة إسبانيا أولا فسنلحق بها دولة الافرنسيس ثانيا منزلين بهما معا بحول الله وقوته شر الهزيمة وأفضح الخذلان فقدرته سبحانه وتعالى التي منت على الأمة التركية الكريمة بالفوز على أعدائها العديدين لا يعز عليها أن تنصرنا على هاتين الدولتين الجائرتين إن عزم أمتنا لا يكل وثباتها لا يتزلزل وهي قد صممت النية على متابعة القتال حتى تنقذ البلاد ولدينا من الذخائر والآلات الحربية العصرية ما يكفينا لشن غارة الحرب وإضرام نارها مدة ثلاثة سنين كاملة.

هذا ولا يتبادر إلى الذهن أنّا نحارب حبا في الحرب أو رغبة في إهراق الدماء كلا ثم كلا وشاهده شروط الصلح المعتدلة كل الإعتدال التي عرضت بها عليهما وأساسها الإعتراف باستقلالنا فإن قبلتا فلهما وإن أبتا فعليهما إذ على الباغي تدور الدائرة.

وأما إذاعة هاتين الدولتين رغبتهما في عقد الصلح فما هي الا مخاتلة ودسيسة سياسية تتوسلان بها لإلقاء تبعة تلاشي عقد الصلح على عاتقنا ولتضليل الرأي العام الإسلامي ومخادعة أهميتهما اللتين قد تدمرتا مما أنزلنا بهما من البطش والتنكيل فهاته الحرب التي أظهرنا فيها قدرتنا العظيمة وبأسنا الشديد ثم انهما لو كانتا صادقتين في دعواهما لما كنا نرى الآن تتابع سوق الجيوش وحشدها على حدود بلادنا زيادة فأزيد أن من يريد الصلح لا يزيد الحرب وطيسا ولا يبدأ باستعمال قنابل الغازات المخنقة ويرميها بالطيارات على الأسواق والمدن السلمية في الليل والنهار فتقتل النساء والصبيان الآمنين في مساكنهم ان من يريد الصلح لا يتكالب على حرق المزروعات وقتل الأنعام ظنا منه أن هذه الوسائل تميتنا جوعا فنذعن إلى الخضوع والاستسلام ان من يفعل ذلك ويدعي أنه يريد الصلح فما هو الا كاذب ومرائي.

فيا أيها المسلمون التونسيون والجزائريون إن الأمر الذي يشق علينا تحمله هو أن نرى أبناءكم يساقون قهرا لمحاربتنا كما أنه يشق علينا أن نرانا ملتزمين لأجل

الدفاع عن استقلالنا أن نتقابل في ساحة القتال مع إخواننا في الجنس والدين إنها حالة والله ستتنغص منها قلوبنا جميعا ولتتفتت منها نفوسنا كمداً ألم يقل الله عز وجل. من يقتل مسلما عامدا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدين فيها وغضب الله عليه ولعنه ـ الآية.

إن أربعة أخماس الجيوش التي هي على حدودنا شاهرة السلاح في وجوهنا من أبنائكم أيها الإخوان أفما من الواجب عليهم أن ينقضوا على أعدائنا المشركين المضطهدين لنا ولكم ويديروا سلاحهم عليهم عملاً بما توصي به الحمية الإسلامية والغيرة الجنسية واتباعاً للأوامر النبوية الشريفة ـ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ـ الحديث.

نعم لقد فر من الواجهة الفرنسوية ملتجئا إلينا عدد غفير من أبنائكم الجنود والقواد وبادروا في الحين بالتطوع في جيوشنا وحاربوا ومازالوا يحاربون معنا الأعداء محاربة الأسود. إني أثني باسم الأمة الريفية على هؤلاء الأبطال مثال الهمة والشجاعة المحمدية الذين سيخلد اسمهم على أمد الدهر في صفحات التاريخ تكريما لصنيعهم الجليل الذي لا تقابلهم عليه الأمم الإسلامية الا بكل تقدير وتبجيل اننا لا ننكر ذلك حاشا وكلا إنما نعتقد أنه لا يجب أن يتخلف فرد من أفراد أبناء المسلمين عن الإنضمام إلينا والاتحاد معنا. إن في هلاكنا هلاككم وفي خلاصنا خلاصكم فلنكن عصبة واحدة ولنتكاتف تكاتف أجدادنا في عهد سابق الإسلام لمحاربة الأعداء فنتوفق لإنقاذ أمتنا الإسلامية من عيشة الذل والهوان وننال حريتنا واستقلالنا.

فدولة الفرنسيس التي تجند اليوم أبناءكم بالجبر وتسوقهم لمقاتلتنا بالرغم فإن تم لها وتغلبت علينا في هاته الحرب لا سمح الله فهي ستجند غدا أولادنا حتما وتقودهم لمحاربتكم اذا أنتم عمدتم يوما ما على الانقضاض عليها تخلصا من نيرها الاستعماري الهالك فكفى بنا ننقسم فيما بيننا في طاعة الأعداء الذين أذلوا كبارنا وسلبوا مستملكاتنا وهتكوا حرمة ديننا ودنيانا فكفى كفى ما قد حل بنا من وبال التفرقة والتهاون لنتعظ وننتهي عن محاربة بعضنا بعضا ومن قتل الأخ أخاه كمن يسعى في حتف نفسه بظلفه.

أيها المسلمون الجزائريون والتونسيون لقد أوفدت الى عاصمتنا وفود عديدة من فاس ومكناس ومراكش وتطاون وغيرها من مدن المغرب الأقصى ومن القطر

الطرابلسي والمصري والفلسطيني والسوري والعراقي والتركي والهندي لتبلغنا ثقة الأمم الإسلامية بجمهوريتنا الريفية وكل هذه البلاد قد قامت بمعاضدتنا بالاسعاف المادي والمعنوي دليلا على علو هممهم الإسلامية الشامخة وعلى إخلاصهم نحونا فأثني على أعمالهم المجيدة التي ارتسمت على قلوب الريفيين بجزيل الشكر والإمتنان وأدعوكم أن تقتفوا بأثرهم المحمود وتوفدوا إلينا وفودكم وتستنهضوا أحياء القلوب ليعملوا في سبيل معاونة الشعب الريفي ومؤازرته في جهاده في الله حق جهاده رفعا لكلمته العليا وانقاذا للملة الحنيفية المضطهدة.

أيها المسلمون الجزائريون والتونسيون لقد جاءت الساعة التي تهب فيها الأمم الإسلامية كافة لتحطم أغلال الإستعباد لتستعيد مجدها الغابر فهذه طرابلس الغرب ومصر وفلسطين وسوريا والعراق كلها تنقض لطرد المتسلطين عليها وإنقاذ بلادها فهلا بكم أن تستفيدوا من هاته الفرصة السانحة وتنهضوا معنا نهضة الفطاحل الأشداء لتحرير بلادنا قاطبة إن دولة الفرنسيس البالية لم تزل من حيث خروجها من الحرب العامة مهتكة القوى ومضعضعة الأركان فانا إذا تألبنا عليها جميعنا فستكون عاقبتها الهزيمة والتلاشي ولن ينقذها اذ ذاك لا اتحادها مع دولة الإسبان ولا مع غيرها وان نفس أمتي هاتين الدولتين هما معاكستان لهما في هاته الحرب وان الجنود من أبناء العمال والزراع أوتي بهم لمحاربتنا كثيرا ما يلتجئون إلينا ولا يريدون مقاتلتنا لأنهم ضد دولتيهما الرأسماليتين وهم يتوعدونهما بالإنقلاب والثورة إن لم تعمدا الى إيقاف الحرب وتقرير الصلح.

وكما أننا نهضنا اليوم في أقصى الغرب للمجاهدة في سبيل استقلالنا فالأمة الصينية التي يتجاوز عدد نفوسها 400 مليون نسمة قد انقضت هي أيضا في أقصى الشرق وامتشقت الحسام ابتغاء تحرير نفسها وانقاذ وطنها المحبوب فلنكن نحن وأمم الشرق عصبة ولنوحد أعمالنا ولنقم قومة الفرد فنضرب على يد المتسيطرين الضربة القاضية ونطردهم من بلادنا طردا لا مرد لهم من بعده.

فيا إخواننا الجزائريين والتونسيين فلقد آن أوان تخليص نفوسنا من نير الإستعمار الافرنسي فلنستفز هممنا ولنقم بمعاضدة بعضنا بعضا فنسترد مجدنا ونستعيد استقلالنا إن الدين المعاونة والجنة تحت ظلال السيوف. ولننتهي من محاربة بعضنا بعضا ومن قتل الأخ أخاه دفاعا عن الأعداء.

ولتدر أبناؤنا الأسلحة التي بأيديها على أعدائنا وليقتلوهم بسلاحهم.

ولنكن عصبة واحدة لنقوى على دحض الأعداء وليتهيأ لنا تشكيل جمهورية ضخمة أركانها جميع بلاد افريقيا الشمالية.

أزف إليكم إخواني هذه الكلمات لعل فيها تفكرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد والسلام على من اتبع طريق الهدى وسبيل الرشاد.

(الطابع)
محمد بن عبد الكريم الخطابي كان الله له

(توقيع)
محمد بن عبد الكريم